

في محكمة التاريخ
ابن العلقمي والطوسي

تأليف
الأستاذ الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني

دار القلم
دمشق

في محكمة التاريخ

ابن العلقمي والطوسي

الطّبعَة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

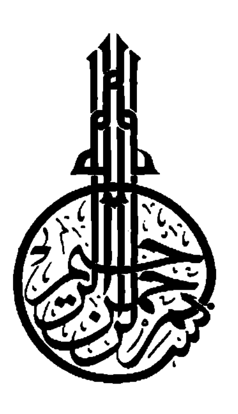
في محكمة التاريخ

ابن العلقمي والطوسي

تأليف

الأستاذ الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني




بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــدَاء

إلى الذين كتبوا التاريخ وصنعوه بمداد دمائهم . .

إلى الذين أصبحوا رمزاً في سِفْرِ تاريخنا الخالد . .

إلى الذين اختاروا منازل النبيّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين . .

المقـــدّمَة

التـاريخ هو السـجل الذي يُدوِّن أفعـال العبـاد، الذين تتمايـز مكانتهم فيه تبعاً لدرجة عطائهم ومواقفهم من الإنسانية وتاريخها، ومن خلال ذلك يمكن أن ندرك طبيعة ذلك التاريخ، ومدى إسهام البشر فيه، وبالتالي مدى إسهام أمّة ما من الأمم في العطاء الإنساني، والحضارة الإنسانية ارتفاعاً وعلواً فيها، أو مدى الانحطاط الحضاري لأمّة أخرى، وبالتالي اشتراكها في تخريب الحضارة الإنسانية، وتعطيل دورها في التاريخ الإنساني.

ولولا التاريخ لافتقدت عناصر ومقومات التقويم المثالي لدور الأمم فيه، وفي الحضارة الإنسانية.. ومن هنا تُكتشف الحالات الإيجابية المشرقة لأمّة ما، وتُكتشف الحالات السلبية المخجلة الأخرى.. وغالباً ما تتجسد أفعال الأمم إيجابياتها وسلبياتها في صورة بعض قادتها، أو صورة بعض أفرادها الذين يكون لفعلهم أثر بارز في إحداث فعل ما في

تـاريخ الأمم الأخرى، أو في تـاريخ الإنسـانية، وبالتالي تعكس تلك الأفعال طبيعة وسـرّ جوهر الفعل التـاريخي للأمة التي ينتمون إليها، وغالباً ما تتضح عن فعل الأمم المبدعة أعمال إيجابية تؤكد أخلاقية الأمة الأصيلة، أو أعمال سلبية تؤكد عكس ذلك.

ولذلك يكون التاريخ الإيجابي لأمة ما، كالشجرة الطيّبة الأصل والمنبت والثمر والظلال والتي سيستظل فيها العبـاد، في حين يكون التاريخ السلبي كالشجرة الخبيثة الأصل والمنبت والثمر، والتي تؤذي العباد في كل ما فيها.. وما تلك إلا منابت خير أو منابت سوء في التربة التي تنبت فيها، وصدق الله تعالى عندما قال: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا...﴾ [الأعراف: ٥٨].

إن المرء عندما يقلّب صفحـات التـاريخ يجد فيـه ما يؤكد تلك الحقيقة، ولو عدنا إلى تاريخ أمتنا ورجالها لوجدناه سلسلة مترابطة من الحلقـات الحضاريـة الإيجابية المبدعـة التي أنارت للإنسـانية جمعاء دروب الخير والمحبة والأمن والسـلام.. ولقد مارسـت الأمة العربيـة دورها الحضاري والإنسـاني في التـاريخ بأقصى درجات الممارسـة والعطاء، وكانت مع كلِّ جهدٍ خيّرٍ يخدم هذا الاتجاه.. أما أعداء الأمة من الأعاجم فقد مارسوا دوراً سيئاً ضد الحضارة الإنسانية وتاريخها

وكانوا مع كل جهد شرير يخدم هذا الاتجاه، حتى أصبح تاريخهم مجرد سلسلة من المواقف السلبية ضد الإنسانية وحضارتها وعطائها، موقفاً لا يغفل عنه الصغير، ولا ينأى عن ذكره الكبير، ولم تخلُ حقبة من التاريخ من أيّ موقف سلبي من جانبهم تجاه مواطن الحضارة، وخاصة في العصور الإسلامية.

ولقد تجسد التآمر الأعجمي هذا في شخصيتين عرفهما التاريخ، ألا وهما: (ابن العلقمي) و(نصير الطوسي) اللذان صارا مثالاً سيّئاً في الغدر والخيانة عبر التاريخ، ليؤكدا تنكرهما لمبادئ وقيم الإسلام، وتنكرهما لفضل العرب المسلمين عليهم وعلى أقوامهم. . فبدلاً من أن يشكرا فضل العرب، ودورهم في حمل رسالة الإسلام إليهم، نجدهما يقابلان الفضل بالجحود والتنكر، مستشهدين بذلك برموز شاخصة من تاريخهم المليء بحالات التآمر على الأمة وتاريخها، والمليء بشواهد الدسِّ والتشويه والتزوير.

ومن أبرز حالات التآمر على الأمة وحضارتها، وعلى الإنسانية، تلك التي تجسدت في ابن العلقمي والطوسي، وموقفهما من الخلافة العباسية والغزو المغولي لها، حيث كانت الخلافة العباسية في عهد (المستعصم بالله) آخر الخلفاء العباسيين تمرُّ في حالة من الضعف والتردي والإرباك وخاصة على مستوى القيادة. . كما أن وضع الأقاليم التابعة لها

كان متردياً هو الآخر، ومقابل حالة التردي هذه كانت هناك موجات التتر المتجهة من المشرق عبر الأراضي الإيرانية باتجاهها.

وإزاء وضع كهذا نناقش مسألتين مهمتين، هما: موقف كل من وزير الخلافة ابن العلقمي، وموقف نصير الطوسي، عالم إيران وفقيهها من تلك الأحداث، نقاشاً علمياً لا يحمل أي تصورات أو أوهام مسبقة أبداً عنهما، إنما هو نقاش نابع من الأمانة التاريخية الملقاة على عاتقنا، ومنسجم مع الدعوة المخلصة لإعادة كتابة تاريخ أمتنا، نقاش لحقائق ومعطيات ثابتة حدثت فعلاً من أجل الحقيقة التي ننشدها، والتي دوَّنها المؤرخون، لأن رحمة التاريخ واسعة جداً، وحسابه أشدُّ وأقسى. فهو لا يرحم كل خوَّان أثيم دَوّن خيانته في سجل الخائنين والجاحدين، وهو لا يرحم من لا يخلص في نيَّته وعمله، فأولئك تخلدهم ذكرى سيئة وعمل دنيء.

فنحن لا نناقش قضية وزير، وقضية فقيه تعاونا على إنهاء خلافة إسلامية عربية هاشمية، بل إننا نناقش حالة قائمة، وموقف كل منهما، معتمدين بذلك على منهجية التحليل الموضوعي، وبروح علمية أمينة، ذلك أن الحالة التي صارت إليها الأمة الإسلامية والإنسانية حينذاك تستدعي وتستوجب تشخيص المواقف المسؤولة وبروح علمية، ليس التشخيص بمعناه المحدد والمجرد، بل للوقوف وقفات طويلة متأنية إزاء موقف كهذا، لأن معرفة موقفي ابن العلقمي والطوسي مسألة أساسية في

حقائق التاريخ لتصحيح ولتوضيح كثير من الآراء، التي التبست وأشكلت على كثير من الدارسين والباحثين في التاريخ.. كما أن المسؤولية التاريخية لِمَا حدث في بغداد حينذاك يجب أن تلقى في رقاب أولئك النفر الضال الذي تسبب في حدوثها، والذي أوصل بغداد إلى الحالة التي أصبحت عليها حينذاك، لأن ما حدث يُعدّ كارثة مروعة حلّت بالتاريخ الإنساني عموماً وتاريخ العراق بصفة خاصة.

ولعل أبرع مؤرخ وصف هذه الحالة من المؤرخين ما ذكره تاج الدين السبكي (ت٧٧١هـ) بقوله: «سنة ست وخمسين وستمئة وهي السنة المصيبة بأعظم المصائب، المحيطة بما فعلت من المصائب، المقتحمة أعظم الجرائم، الواثبة على أقبح العظائم، الفاعلة بالمسلمين كل قبيح وعار، النازلة عليهم بالكفار... بالتتار، حكاية كائنة ببغداد، لتعتبر بها البصائر، وتشخص عندها الأبصار، وليجري المسلمون على مرِّ الزمان دموعهم دماً، وليدري المؤرخون بأنهم ما سمعوا بمثلها واقعة جعلت السماء أرضاً والأرض سماء»[1].

وقال المؤرخ ابن كثير (ت٧٧٤هـ): «وما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بُنيت بغداد...»[2]. من هنا يتبين لنا عظمة الذنب لمن اقترفه أو ساهم في حدوثه أو ساعد عليه.. من هذا المنطلق

(١) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ١٠٩ ـ القاهرة، ١٣٢٤هـ.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠١ ـ القاهرة، ١٣٥٨هـ.

ومن هذا الموقف نناقش مسؤولية ابن العلقمي والطوسي، وموقفهما من الغزو المغولي للأمة الإسلامية.

فالتاريخ دوَّن في حينه موقف ابن العلقمي، وتمتعه بالصلاحيات المطلقة، وكونه الرجل الأول بعد الخليفة الذي تحمل مسؤولية ماحدث، إضافة إلى دوره الفاعل في تحقيق ما حدث، وظل هذا الموقف من أبرز المواقف السيِّئة التي اقترفها بحق الحضارة الإسلامية والإنسانية، كما أن ذلك الموقف لا يمكن أن يتناساه المرء والتاريخ.. وإذا ما ظل غاطساً لفترة طويلة من الزمن بظروفه وملابساته فإن زمن اليوم وظرفه، ما هو إلا تعبير عن حقيقة وأصالة الأمة وهويتها الناصعة والخالدة بين الأمم، وتعبير عن كشف كثير من الملابسات والأمور الغامضة التي علقت في تاريخها، ولذلك يُعدُّ ابن العلقمي أحد تلك الغوامض، ولذلك يجب توضيح كل حقائق وملابسات الأمور المتعلقة به.

ولقد دوَّن التاريخ في حينه الموقف السياسي والديني لنصير الطوسي رغم ما عُرف عنه من باعه في علم الفلسفة، ورغم منزلته العلمية التي تفرض عليه مسؤولية أكبر وثقلاً أعظم لكونه رجل علم ودين، ويجب أن يكون حريصاً على دار الإسلام ودار العلم من أجل أن يصون ويحمي الإسلام وقاعدته بغداد، فكيف يجوز لمسلم، وكيف لمن يسميه الناس عالماً ومفكراً وفيلسوفاً، وكيف لمن يؤمن به البعض فقيهاً ومتفلسفاً،

كيف تسمح له نفسه بإلقائها في أحضان أناس وثنيين ومشركين، ألم يقرأ ما قاله الرسول الكريم ﷺ: «من أعان على خصومة بظُلم فقد باء بغضب من الله عز وجل»[1]، ألم يقرأ قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي قال: «. . . لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فهم فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها»[2]. ألم يقرأ ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه لزياد بن حدير: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟. قلت: لا . . قال: يهدمه زَلَّة عالِم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين»[3].

فكيف يرضى المسلم أن يَحُلَّ بمعقل الإسلام ما حلَّ بها، لولا أن تداركته في نفسه حمية التعصب لقومه ولأبناء جنسه. وقد قال الرسول الكريم ﷺ: «ستكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس»[4].

فكيف يبرر الطوسي تعاونه مع هولاكو الوثني؟. ولذلك فليس من المستغرَب إن احتفلت إيران في ذكراه يوم ٢٦ أيار لغاية ٢ حزيران من عام ١٩٥٦م بمناسبة مرور سبعة قرون على وفاته، وفي جو عاصف بالروح الفارسية.

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب، كتاب الكبائر ـ الرياض، مطابع الفلاح، ص٤٠.
(٢) الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أصول الإيمان ـ الرياض، مطابع الفلاح، ص٤١
(٣) المصدر السابق، ص٣٦.
(٤) كتاب الكبائر، ص٥٣.

إذن، فحينما نكشف عن تاريخ ابن العلقمي والطوسي ومواقفهما من الغزو المغولي فإن ذلك فيه عبرة وعِبَر وذكرى وخبر ينفع تذكير الذاكرين، ليتذكروا وليستذكروا حكم الله تعالى وحكم التاريخ على لسان الرسول العربي الكريم محمد بن عبد الله (ﷺ) الذي قال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»[1].

لقد تناولت في بحثي هذا دراسة السيرة الذاتية لكلٍّ من ابن العلقمي والطوسي، مع تتبع دقيق لاسميهما وشخصيتهما، واشتغالهما بالسياسة والإدارة، ومواقف كلٍّ منهما من الغزو المغولي، ومن تهديدات المغول المستمرة، وبعد ذلك موقفهما من الاحتلال المغولي لبغداد.. ومن ثم مناقشة لآراء المؤرخين والعلماء والمفكرين سواء منهم الذين دافعوا عنهم أو الذين انتقدوهم.

ونرجو أن يسد هذا الكتاب فراغاً في المكتبة العربية، راجين الله تعالى أن يوفقنا لما فيه خير أمتنا ووطننا وتاريخنا، ومنه نستمد العون.

بغداد المحروسة

٢٠ ـ ١ ـ ١٩٩٠م

٢٣ ـ ٦ ـ ١٤١٠هـ

مُحَمَّد جَاسِم حَمادِي ٱلْمَشْهَدَانِي

---

(١) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط: ٣/ ١٢٢ ـ ١٢٣ ـ بيروت، ١٩٨٥م.

المبحث الأول

ابن العلقمي في محكمة التاريخ

ويمكن تقسيم بحثنا عن دور ابن العلقمي في الاحتلال المغولي لبغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م إلى عدة فقرات هي :

١ ـ اسمه ونسبته

٢ ـ شخصيته

٣ ـ اشتغاله بالإدارة قبل وزارته

٤ ـ وزارته

٥ ـ موقف ابن العلقمي من الغزو المغولي

٦ ـ موقف ابن العلقمي من الجيش العباسي

٧ ـ سياسة ابن العلقمي تجاه تهديدات المغول المستمرة

٨ ـ مراحل الغزو المغولي تجاه بغداد، ومواقف الوزير منها

٩ ـ موقف ابن العلقمي من احتلال المغول بغداد

١٠ ـ موقف أهل بغداد من ابن العلقمي بعد احتلالها

١١ ـ وفاة ابن العلقمي، ورأي المؤرخين فيها

١٢ ـ مناقشة لآراء المدافعين عن ابن العلقمي.

المبحث الأول

ابن العلقمي في محكمة التاريخ

اسمه ونسبته:

هو مؤيد الدين أبو طالب محمد بن أحمد بن محمد بن علي[1].

وفي رواية محمد بن محمد بن علي[2] المعروف بابن العلقمي، نسبة إلى جده العلقمي، لأنه حفر النهر المسمَّى بالعلقمي، وهو الذي برز الأمير الشريف السلطاني بحفره، وسمي القازاني[3]. فعمَّت شهرته الآفاق بهذه النسبة.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣ / ٢٠٢؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق الدكتور إحسان عباس: ٢/ ٢٥٢ ـ بيروت، ١٩٧٣؛ وعيون التواريخ، تحقيق الدكتور فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم: ٢٠/ ١٩٣ ـ بغداد، ١٩٨٠؛ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد، ص٢٧٨ ـ بغداد، ١٩٦٩م.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٣ ـ ٤ ـ القاهرة، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

(٣) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٣٣٧ ـ بيروت، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

شخصيته :

اشتغل ابن العلقمي في شبابه بالنحو وعلم الأدب في (الحلّة) على عميد الرؤساء ابن أيوب[1]، ثم قدم بغداد وقرأ على أبي البقاء عبد الله بن المسيب العُكْبَري[2]. وكان قد اشتهر بالإنشاء والأدب[3]. وكان ابن العلقمي قد أمر فخر الدين عبد الحميد بن أبي الحديد بتأليف كتاب (شرح نهج البلاغة) فأنجزه له، وأهداه إليه قائلاً: «فخرج هذا الكتاب كاملاً في فنه، واحداً بين أبناء جنسه، ممتعاً بمحاسنه، جليلة فوائده، شريفة مقاصده، عظيماً شأنه، عالية منزلته ومكانه، لا عجب أن يتقرب بسيد الكتب إلى سيد الملوك، وبجامع الفضائل إلى جامع المناقب، وبواحد العصر إلى واحد الدهر، فالأشياء بأمثالها أليق، وإلى أشكالها أقرب، وشبه الشيء إليه منجذب، ونحوه دان ومقترب»[4].

كما وأن الصاغاني صنَّف لابن العلقمي كتاب (العباب) في اللغة[5]. ويروى أنه كان عنده مكتبة فيها عشرة آلاف مجلد[6].

---

(١) المصدر السابق، ص٣٣٧؛ الغساني، ص٦٤٠.
(٢) الكتبي فوات الوفيات: ٣/ ٢٥٤؛ الغساني، ص٦٤٠.
(٣) ابن كثير البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠٣.
(٤) ابن أبي الحديد؛ مصدر سابق: ١/ ٥.
(٥) ابن طباطبا؛ الفخري، ص٣٣٧.
(٦) المصدر السابق، ص٣٣٧.

اشتغال ابن العلقمي بالإدارة قبل وزارته :

اشتغل ابن العلقمي في مدينة الحلّة على عميد الرؤساء ابن أيوب، وعاد إلى بغداد، وأقام عند خاله أستاذ الدار عضد الدين أبي نصر المبارك ابن الضحاك، الذي كان يلقب بـ(شيخ الدولة . . علماً ورئاسة وتجربة)، واستنابه في ديوان الأبنية، وشغّله بعلم الإنشاء، إلى أن توفي خاله، فانقطع ولزم داره، ولما قبض على أستاذ الدار مؤيد الدين القمي فوضت الأستاذ دَارِيّة إلى شمس الدين أبو الأزهر أحمد بن الناقد، الذي استدعى ابن العلقمي إلى دار التشريفات، وأمره بالتردد إليها في كل يوم، ومشاركة النواب بها، فلما نقل أستاذ الدار أحمد بن الناقد إلى الوزارة، نقل ابن العلقمي إلى أستاذية الدار، وظل بها بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله[1] ، وأخذ البيعة للخليفة المستعصم بالله بسبب عجز وزيره أبي الأزهر ابن الناقد لكبر سنه . . وعند وفاة ابن الناقد عين وزيراً للخلافة[2] .

وزارة ابن العلقمي :

استوزر ابن العلقمي بأمر كبار الأمراء الدويدار، والشرابي[3]

---

(١) الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ٢٥٤؛ الغساني، ص٦٤٠ .
(٢) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٦٧؛ الغساني، ص٦٤٠ ـ ٦٤١ .
(٣) السبكي، طبقات: ٥/ ١١٠ .

وذلك سنة (٦٤٢هـ)[١]. ويبدو أنه كان كفوءاً بالإدارة. . كما ذكر ذلك عدد من المؤرخين، فيروى أنه كان «خبيراً بتدبير الملك. . .»[٢]. . «عالي الهمة. . .»[٣]. وقال عنه ابن طباطبا: «كان رجلاً. . محباً للرياسة، كثير التجمل، رئيساً، متمسكاً بقوانين الرياسة، خبيراً بأدوات السياسة، لبيق الأعطاف بآلات الوزارة. .»[٤].

وأصبح بمرور الوقت صاحب سلطان ونفوذ كبير، قال السيوطي: «ثم ركن المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي. . ولعب بالخليفة كيف أراد»[٥].

وقال ابن كثير: «وقد حصل له من التعظيم والوجاهة أيام المستعصم ما لم يحصل لغيره من الوزارة»[٦].

وكان نفوذ ابن العلقمي كبيراً ومؤثّراً حيث استغل هذا النفوذ من

---

(١) الذهبي، دول الإسلام: ٢/ ١٤٨ ـ حيدر آباد ١٣٣٧هـ.

(٢) الكتبي، عيون التواريخ: ٢٠/ ١٩٤؛ فوات الوفيات: ٣/ ٢٥٢؛ الغساني، ص٦٤٠.

(٣) الكتبي، عيون التواريخ: ٢٠/ ١٩٣.

(٤) ابن طباطبا، الفخري، ص٣٣٧.

(٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٦٥.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢١٢.

أجل تحقيق هدف تدمير الخلافة، وإلقاء التُّهم الباطلة إلى الخليفة، ويتضح ذلك من خلال قول الهمذاني: «اجتمع عند الوزير أمراء بغداد وعظماؤها، مثل سليمان شاه بن برجم، وفتح الدين بن كره، ومجاهد الدين الدويدار الصغير، وأطلقوا ألسنتهم بقدح الخليفة، وطعنه، قائلين إنه صديق المطربين والمساخرة، وعدو الجيش والجنود، وإننا أمراء الجيش بعنا كل ما ادخرناه في عهدة والده»[1].

في حين قال الغساني عن الخليفة المستعصم بالله: «كان عفيف الفرج لم ينقل عنه أنه عصى الله بفمه ولا بفرجه، ولا أخلَّ بصيام الإثنين والخميس من كل شهر، وكان يصوم شهر رجب من كل سنة، إلى أن فارق الدنيا، إلا أنه لم يكن بصيراً بتدبير الملك»[2].

ومن هنا يتضح لنا أن نفوذه كان كبيراً ومهماً، ولذلك سنؤكد في بحثنا هذا على موقفه من الخطر المغولي، ودوره في هذا الشأن، خاصة أن عساكر المغول كانت قد منيت بهزيمة في ١٧ ربيع الآخر سنة (٦٤٢هـ)، عندما حاولوا مهاجمة بغداد[3]. في السنة نفسها التي تولى

---

(١) الهمذاني، جامع التواريخ، م٢: ١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢) الغساني، ص٦٣٢.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٧٠، الطبعة الأولى، طبعة البابي الحلبي؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٤٩ ـ بيروت، ١٨٩٠م؛ ابن=

فيها ابن العلقمي الوزارة، الأمر الذي يوجب عليه أن يولي هذا الخطر أهمية كبيرة.

موقف ابن العلقمي من الغزو المغولي:

تكاد المصادر تجمع على مراسلة ابن العلقمي للمغول واتصاله بهم، وممن ذكر ذلك من المؤرخين: أبو شامة المتوفى سنة (٦٦٥هـ)[1]، والجورجاني (ت٦٩٨)[2]، وابن تيمية (ت٧٢٨)[3]، والنويري (ت٧٣٢)[4]، والذهبي (ت٧٤٨هـ)[5]، وابن الوردي (ت٧٥٠هـ)[6]، وابن قيم الجوزية (ت٧٥١)[7]، والكتبي (ت٧٦٤)[8]، وعبد الله

= الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٦٨.

(١) أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف بالذيل على الروضتين الطبعة الأولى، ص١٩٨ ـ القاهرة، ١٩٤٧م.

(٢) طبقات ناصري، ص٤٤٤.

(٣) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص٢٦٦.

(٤) النويري، نهاية الأرب: ج٢٦؛ صورة شمسية دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٤٩) معارف عامة نقلاً عن الصياد، ص٢٧٥.

(٥) الذهبي، دول الإسلام: ٢/ ١٥٩.

(٦) ابن الوردي، تاريخ: ٢/ ١٩٥ ـ القاهرة، ١٢٨٥هـ.

(٧) إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٦٣.

(٨) الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣؛ عيون التواريخ: ٢٠/ ٧٤.

الشيرازي[١]، والسبكي (ت٧٧١هـ)[٢]، وابن كثير (ت٧٧٤هـ)[٣]، والملك الأشرف الغساني (ت٨٠٣هـ)[٤]، وابن خلدون (ت٨٠٨هـ)[٥]، والمقريزي (ت٨٤٥هـ)[٦]. وابن تغري بردي (ت٨٧٤)[٧]. والسيوطي (ت٩١١هـ)[٨]، والشيخ حسن الدياربكري (ت٩٩٠هـ)[٩]، والششتري (ت١٠١٩هـ)[١٠]، وابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)[١١].

وقد اختلفت آراء المؤرخين في طريقة هذا الاتصال، فقد روى

---

(١) عبد الله بن فضل الشيرازي، وصاف الحضرة؛ تجزية الأمصار؛ تجزية الإعصار: ١/ ٢٨ـ٣٨ـبومباي، ١٢٤٩هـ.
(٢) السبكي، طبقات: ٥/ ١١٠.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠٢ـ٢١٢.
(٤) العسجد، ص٦٢٥ـ٦٢٦.
(٥) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص١١٤٩ـبيروت، ١٩٥٦ـ١٩٦١م.
(٦) السلوك: ج١/ ق٢/ ٤٠٠.
(٧) النجوم: ٧/ ٨٤.
(٨) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٦٥ـ٤٦٧.
(٩) الدياربكري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: ٢/ ٤٢٠ ـ ٤٢١ ـ القاهرة ١٢٨٣هـ.
(١٠) السيد نور الله بن شرف الدين الحسيني المرعشي المعروف بالششتري، مجالس المؤمنين، ص٤٠٠ نقلاً عن الصياد، ص٢٧٦.
(١١) ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٥/ ٢٥٥ ـ بيروت، بدون تاريخ.

اليونيني والكتبي، أنه أرسل إليهم غلامه وأخاه[1]. وذكر ابن الوردي بأنه أرسل إليهم أخاه يستدعيهم[2].

وأشار الكتبي بأنه كان يكاتب التتار، وذكر الكتبي والسبكي أنه: «تحيل إلى أن أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقاً بليغاً، وكتب ما أراد عليه بالإبر، ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره وغطّى ما كتب، فجهزه وقال: إذا وصلت مُرْهُم بحلق رأسك ودعهم يقرؤون ما فيه، وكان آخر الكلام (اقطعوا الورقة) فضربت عنقه[3]. وقال الكتبي: «وهذا غاية في المكر والخزي»[4].

ولا يهمنا هنا طريقة اتصاله بالمغول، ولكن يهمنا هنا آراء المؤرخين وما ذكروه في هذا الشأن، والتي سنتطرق إلى ذكرها. فقد قال أبو شامة (ت٦٦٥هـ): «... إن التتار استولوا على بغداد بمكيدة دبرت مع وزير الخليفة»[5].

---

(١) ذيل مرآة الزمان: ١/ ٨٥ ـ ٨٩ ـ حيدر آباد، ص١٣٧٤ ـ ١٣٧٥؛ الكتبي، عيون التواريخ: ٢٠/ ١٣٢.

(٢) ابن الوردي، تاريخ: ٢/ ١٩٦.

(٣) الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥؛ السبكي، طبقات: ٥/ ١١٠.

(٤) مصدر سابق نفسه: ٣/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٥) أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص١٩٨.

وقال الجورجاني (ت٦٩٨هـ): «فكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد»[١].

وقال ابن تيمية (ت٧٢٨): «ووثق به المستعصم آخر الخلفاء العباسيين فألقى إليه زمام أموره، ولما دخلت جيوش هولاكو الوثني بلاد إيران، أرسل إليه ابن العلقمي يحرضه على قصد بغداد، وكان ابن العلقمي يأمل إذا سقطت الدولة العباسية بمساعيه أن تكون له يد عند هولاكو»[٢].

وقال اليونيني: «وكاتب الوزير ابن العلقمي التتر، وأطمعهم في البلاد، وسهل عليهم ملك العراق، وطلب منهم أن يكون نائبهم في البلاد، فوعدوه بذلك...»[٣].

وقال عبد الله فضل الشيرازي: «... أرسل ابن العلقمي في الخفاء رسولاً إلى هولاكو، أظهر الإخلاص والطاعة، وزين مملكة بغداد في خاطره...»[٤].

---

(١) طبقات، تاريخ، ص٤٤٤.
(٢) ابن تيمية، المنتقى من المنهاج، ص٢٦٦.
(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ١/ ٨٥ـ٨٩.
(٤) عبد الله الشيرازي، تاريخ وصاف: ١/ ٣٧ـ٣٨.

وقال النويري (ت٧٣٢هـ): «. . . وكان قد كاتبه ـ أي هولاكو ـ وحثه على قصد بغداد، وأضعف جيوش الإسلام . . . »[١].

وقال الذهبي (ت٧٤٨) : «. . . وأخذ يكاتب التتار ويراسلونه، والخليفة غافل لا يطَّلع على الأمور . . . ». وأضاف الذهبي : «. . . وتنمَّر ابن العلقمي وجسَّر التتار على العراق . . . »[٢].

وقال ابن الوردي (ت٧٥٠هـ): «. . . كاتب التتار وأطمعهم في بغداد»[٣]. وقال الكتبي (ت٧٦٤هـ): «فكاتب ابن العلقمي التتر، وأطمعهم في البلاد . . . وسهل عليهم ملك العراق . . وأخذوا بالتجهيز لقصد العراق»، وأضاف: «. . . وأخذ يكاتب التتار إلى أن جسَّر هولاكو وجرأه على أخذ بغداد . . . ». وقال: «. . . والخليفة غافل . . . والرسل بينهم»[٤]. وقال السبكي (ت٧٧١هـ): «وتحيَّل في مكاتبة التَّتار

---

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٦، صورة شمسية، بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٤٩) معارف عامة، نقلاً عن كتاب الصياد، المغول في التاريخ، ص٢٧٥.

(٢) الذهبي، دول الإسلام: ٢/ ١٥٦ـ١٥٩.

(٣) ابن الوردي، تاريخ: ٢/ ١٩٥.

(٤) الكتبي، عيون التواريخ: ٢٠/ ٧٤ـ ١٣٢ ـ ١٩٤؛ فوات الوفيات: ٣/ ٢٥٢ـ ٢٥٣.

وتهوين أمر العراق عليهم، وتحريضهم على أخذها»[1].

وقال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): «ثم كاتب التتار، وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهّل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال». وأضاف ابن كثير قائلاً: «ثم مالأ على الإسلام وأهله الكفار هولاكو خان، حتى فعل ما فعل...»[2].

وقال الملك الأشرف الغساني (ت٨٠٣هـ): مشيراً إلى شعر عبد القاهر ابن القرطبي، وكان يومئذٍ كاتب ديوان العرض بقصيدة فيها إنذار وتحذير[3]:

يا سائلي ولمحض الخير يرتاد ... أصخ فعندي نشوان وإنشادُ
واسمع تجد لي روايات تحققها ... ذا راية وأحاديث وإسنادُ
أما الوزير فمغـول ... والعارضات فنساخ ومدَّادُ

وقال الغساني: «... وكتب إليه الوزير مؤيد الدين ـ أي لهولاكو ـ يطمعه في البلاد، ويسهل عليه احتلال العراق، وطلب أن يكون نائبه فيها، فوعده بذلك..»[4]. وأشار الوزير على الخليفة بعدم الإجابة إلى

---

(١) السبكي، طبقات: ٥/ ١١٠.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠٢ ـ ٢١٢.
(٣) الغساني، العسجد المسبوك، ص٦٢٧.
(٤) المصدر السابق، ص٦٢٦.

ما طلب هولاكو. . فلما سمع هولاكو مضمون الكتاب، وفهم من الجواب، جرد العزم، وقدم الحزم. . وكان الوزير لا يُطلع الخليفة على كتب صاحب الموصل ولا خبره»[1].

وقال العلاَّمة ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) عندما تحدث عن هولاكو: «بلغته في طريقه وصية ابن العلقمي، يستحثه للمسير إلى بغداد»[2].

وقال ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ) عن ابن العلقمي: «كان يصانع التتر في الباطن، ويكاتبهم ويهاديهم»[3].

وقال القلقشندي (ت٨٢١هـ): «وكان. . . مؤيد الدين ابن العلقمي. . . كتب إلى هولاكو بن طولي بن جنكيز خان ملك التتر، وأطمعه في البلاد. . .»[4].

وقال السيوطي (ت٩١١هـ): «. . . ثم باطن التتار وناصحهم وأطمعهم في المجيء إلى العراق وأخذ بغداد. . . وصار إذا جاء خبر

---

(١) المصدر السابق، ص٦٢٦.
(٢) ابن خلدون، تاريخ: ٥/ ١١٤٩.
(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٨٤.
(٤) القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج: ٢/ ٩٠ ـ الكويت ١٩٦٤.

منهم كتمه عن الخليفة، ويطالع بأخبار الخليفة التتار، إلى أن حصل ما حصل».

وفي رواية قال السيوطي: «... والوزير ابن العلقمي حريص على إزالة الدولة العباسية.. والرسل في السر بينه وبين التتار...». وأضاف السيوطي «أن الوزير كاتب التتار، وأطمعهم في البلاد»[1].

وقال الديار بكري (ت٩٩٠هـ): «... كان قد كتب إلى هولاكو ملك التتار في الدست إنك تحضر إلى بغداد وأنا أسلمها لك»[2].

وقال الششتري (ت١٠١٩هـ): «إنه كاتب هولاكو والخواجة نصير الدين الطوسي، وحرَّضهما على تسخير بغداد للانتقام من العباسيين»[3].

وقال ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ): «... والوزير مؤيد الدين، وأتباع الخليفة يكاتبون هولاكو، والرسل بينهم»[4].

وذكر نظمي زادة أفندي، بأنه أرسل إلى هولاكو يعلمه سراً

---

(١) السيوطي، تاريخ، ص٤٦٥ ـ ٤٦٧.
(٢) الدياربكري، تاريخ الخميس: ٢/ ٤٢٠ ـ ٤٢١.
(٣) الششتري، مجالس المؤمنين، ص٤٠٠، نقلاً عن الصياد، ص٢٧٦.
(٤) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٥/ ٢٥٥.

بالوضع، ولم يكتف بهذا، بل أرسل إليه مرة أخرى يخبره أن بغضه للخليفة ومحبته لهولاكو وإخلاصه له، حمله على الكتابة مرة أخرى مُلحّاً وملتمساً الإسراع في القدوم[1].

وفي سنة (٦٤٤هـ) ـ أي بعد سنتين من تولية ابن العلقمي منصب الوزارة ـ قَدِمَ رسولان من التتار أحدهما بركة والآخر باجونا، فاجتمعا بالوزير مؤيد الدين ابن العلقمي، وتعمَّت على الناس بواطن الأمور[2].

وفي سنة (٦٥٤هـ) وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي ببغداد، وتحدثوا معه، ووعدوا جماعة من أمراء بغداد بعدة مواعيد، والخليفة لا يعبأ بشيء من ذلك[3].

مما تقدم تبيّن لنا أن مسألة اتصاله بالمغول من خلال ما أوردته تلك المصادر هي حقيقة واقعة، إذا ما علمنا أنها وردت عند مؤرخين ثقات، وبالأخص الإمام الذهبي، وابن كثير، والسبكي، والسيوطي، والدياربكري.

---

(١) نظمي زادة مرتضى أفندي، كلش خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس، ص١٢٩ - النجف ١٩٧١م.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، مخطوطة مايكروفلم، في مكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب، جامعة بغداد ورقة رقم (٤٣١).

(٣) المقريزي، السلوك: ج١/ق٢/ ٤٠٠.

ولا يوجد هناك أي مبرر لما قام به ابن العلقمي للخيانة العظيمة التي اقترفها بحق الأمة الإسلامية والإنسانية، وكان تبريره لخيانته أسوأ من فعله الخياني ذاته، وذلك عندما أثار قُبيل الغزو المغولي الفتنةَ في بغداد بين أهل باب البصرة وأهل الكرخ، أدَّت إلى نهب الكرخ، الذي كان يسكن فيه أنصار ابن العلقمي فقال لهم: «أنا أكفيكم منهم»[1].

أما عن كيفية وطريقة الاتصال، فهذا لا يهم بقدر اهتمامنا بالتأكد من حقيقـة اتصاله بهم.. بغض النظـر عن حجم هذا الاتصال أو نوعيته أو مدته. ففي حكم التاريخ أن الاتصال بأي عدوٍّ كان، لا يمكن أن يُغتفر، بغضّ النظر عن الطريقـة أو الحجم، رغم أن الدكتور (العريني) يقول: «وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد، ثم أرسل إليهم أخاه يستدعيهم»[2].

موقف ابن العلقمي من الجيش العباسي:

وأيضاً كما مرَّ بنا من إجماع المؤرخين المار ذكرهم عن اتصالات ابن العلقمي مع المغول، فهم أيضاً يكادون يجمعون على أن ابن العلقمي

(١) النجوم الزاهرة: ٧/ ٤٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، مخطوط الجزء الأخير، مخطوطة برقم (١٨٠٣)، ورقة رقم (٣٨٩).
(٢) الدكتور السيد الباز العريني، المغول، ص٢١٥ ـ بيروت ١٩٨١م.

قد أدى دوراً مهماً في إضعاف القدرة العسكرية العباسية. . فيروى أن الخليفة العباسي المستنصر بالله قد استكثر من الجند، حتى بلغ عسكره أكثر من مئة ألف مقاتل. . وكان فيهم أمراء أكابر، يطلق على كل منهم لفظ الملك[1]. وقال ابن كثير: «منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر. . .»[2].

وقد ذكر الكتبي (ت٧٦٤هـ) أن ابن العلقمي «أشار على المستعصم بقطع أرزاق الجند، وأن يصانع التتر، ويحمل المال إليهم»[3].

وكان الوزير ابن العلقمي يجتهد في صرف الجيوش، وإسقاط اسمهم من الديوان، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق منهم سوى عشرة آلاف.

ويصف ابن كثير هذه الحالة بقوله: «. . . كلهم قد صُرفوا عن إقطاعهم، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم، ويحزنون على الإسلام وأهله، وذلك كله من آراء الوزير ابن العلقمي»[4].

---

(١) الكتبي، عيون التواريخ: ٢٠/ ١٣٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠٢.

(٣) الكتبي، مصدر سابق؛ ٢٠/ ١٣٢.

(٤) ابن كثير، مصدر السابق: ١٣/ ٢٠٠ ـ ٢٠١.

وقال أيضاً: «وجيوش بغداد في غاية القلَّة ونهاية الذلَّة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش.. وذلك كله من آراء الوزير ابن العلقمي»[1].

وقال الذهبي: «... وقطعوا أخبار الجند.. وانقطع ركب العراق مدةً، كلٌّ ذلك من عمل الوزير ابن العلقمي»[2]. وكان ذلك في سنة ٦٤٨هـ.

ولعل أبـرز من رسـم صورة عن الوضع المزري لجيـش الخلافة ماذكره السبكي عندما قال: «وبسبب ما أشار به على الخليفة من جمع المال والتقليل من العساكر، فإن الجند صاروا يطلبون من يستخدمهم في حمل القاذورات، ومنهم من يُكاري على فَرسِه، لِيصلوا إلى ما يتقوَّتون به»[3].

ولـم يقتصر هذا التدمير لقدرة الخلافة العسكرية على الجند، وإنما شمل كذلك قطع العلف لدواب الجنود ما يزيد على الخمسة والثلاثين ألفاً[4]. أما البقية الباقية من عساكر الخلافة فإن وضعهم هو الآخر كان سيِّئاً للغاية.

(١) ابن كثير، مصدر سابق: ١٣/ ٢٠٠/ ٢٠١.
(٢) الذهبي، دول الإسلام: ٢/ ١٥٦.
(٣) السبكي، طبقات: ٥/ ١١٠.
(٤) نظمي زادة، كلش خلفا، ص١٢٨.

ويصف ابن الكازروني وضع من بقي من الجند بقوله: «... إن عساكر بغداد تألموا غير مرة من تأخير معاشهم، وترددوا إلى الديوان لذلك، فتارة تطلق لهم، وتارة يدافعون عنها.. فلم يبق منهم إلا القليل النزر»[1].

وقال ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ): «إن ابن العلقمي أشار على المستعصم بقطع أرزاق الجند، ومصانعة التتار وإكرامهم يحصل بذلك المقصود، ولا حاجة لكثرة الجند، ففعل ذلك الخليفة، وبحجة توفير الأموال صرف الجند وشتت مرة عشرين ألف مقاتل»[2].

إن هذه الإجراءات التي اتُّخذت تجاه الجيش العباسي أدَّت إلى تناقص أعداده مما يقارب مئة ألف مقاتل في بداية خلافة المستعصم إلى ما يقارب عشرة آلاف مقاتل في بداية الغزو المغولي.. إذا ما علمنا أن وضع هؤلاء كان سيِّئاً أيضاً بسبب الضيق الاقتصادي، الذي كانوا يعانون منه، وانعكاس هذا على وضعهم النفسي، وعلى التدريب ومعنوياتهم القتالية. لذلك فإن هذا التحجيم لَدوْر الجيش العباسي، كان له أثره البالغ في انحطاط وتدهور القوة العسكرية العباسية.

---

(١) مختصر التاريخ، ص٢٧٠.
(٢) النجوم الزاهرة: ٧/ ٤٨.

وقد وصف الدياربكري وضع الجند الذين سرحهم بقوله: «محا اسم من ذكر من الديوان، ثم نفاهم من بغداد، ومنعهم من الإقامة بها، ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى، ومحا اسم عشرين ألفاً من الديوان، ثم كتب إلى هولاكو بمافعل»[1].

ويعلّق الذهبي (ت٧٤٨هـ) على نتائج هذه السياسة التي انتهجها ابن العلقمي تجاه الجيش العباسي بقوله: «أما في بغداد فضعف دست الخلافة، وقطعوا أخبار الجند الذين استنجد بهم المستنصر، وانقطع ركب العراق مدة.. كان ذلك من عمل الوزير ابن العلقمي»[2].

وبعد أن يشير القلقشندي (ت٨٢١هـ) إلى إجراءات ابن العلقمي في تسريح الجيش العباسي، قال: «... فصار عسكرها دون عشرين ألف فارس...»[3].

سياسة ابن العلقمي تجاه تهديدات المغول المستمرة:

وإزاء تهديدات المغول المستمرة لم يقترح الوزير على الخليفة أي

---

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢/ ٤٢٠-٤٢١.
(٢) الذهبي، دول الإسلام: ٢/ ١٥٦.
(٣) القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج: ٢/ ٩١-الكويت ١٩٦٤.

شيء من شأنه أن يعزز صمود الجيش، ويعزز الثقة بنفوس الجيش والناس عامة، بل اقترح على الخليفة عدة أمور، لا تشجع على الصمود والتصدي للمغول، وكان موقفه من الغزو المغولي يتميَّز بإظهار كل عوامل التردي والانهزام من أجل إفشال موقف الخلافة، وعزمها على مواجهة العدوان المغولي، وكان كلما وصلت أخبار بقدوم المغول، فإنه لا يحرك عزمه، ولا همّته لمواجهة هذا الخطر(١).

ففي الوقت الذي اقترح فيه سليمان شاه على الخليفة التجهيز لمحاربة العدوّ ولقائه، وقال الخليفة للوزير: «إن كلام سليمان شاه له الأثر في النفس المنهكة، فاستعرض الجند حسب تقديره، لأغنيهم بالدرهم والدينار، وسلم أمرهم إلى سليمان شاه ليحقق خطته»(٢). على أن الوزير اعتقد أن الخليفة لم يمنح مالاً، أما اقتراح ابن العلقمي على الخليفة فكان نصه:

«ينبغي أن ندفعه ببذل المال... فيجب إعداد ألف حِمْل من نفائس الأموال، وألف من نجائب الإبل، وألف من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدّات، وينبغي إرسال التحف والهدايا في صحبة الرسل

---

(١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٦٨.
(٢) رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، م٢: ١/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤ ـ القاهرة، بيروت، بدون تاريخ.

الكفاة الدهاة مع تقديم الاعتذار إلى هولاكو، وجعل الخطبة والسكة باسمه»[1].

غير أن اقتراح الوزير هذا جُوبه بمعارضة من قِبَل عدد من القادة، وعلى رأسهم مجاهد الدين أيبك، المعروف بالدويدار الصغير، الذي حذَّر الخليفة مع عدد من القادة من مغبة الموافقة على اقتراح الوزير هذا، وأرسل إلى الخليفة رسالة نصها: «إن الوزير دبر هذه الحيلة لمصلحته الخاصة، لكي يتقرب زلفى إلى هولاكو، ويُلقي بنا نحن الجنود في البلاء والمحنة.. فعدل الخليفة عن إرسال الأحمال»[2]. غير أنه في آخر المطاف طالب الخليفة بالاستسلام.. والغريب أن نجد (حسن الأمين) يظهر استغرابه من عدم اتباع المستعصم نصيحة ابن العلقمي بالاستسلام المطلق حينما قال: «وبعد فوات الأوان يدرك المستعصم أن ما قد أشار به ابن العلقمي كان هو الصواب، وأنه لو عمل بآرائه لما وصل الحال إلى ما وصل إليه»[3].

---

(١) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سابق، م١: ١/ ٢٧٢؛ رسالة نصير الدين الطوسي في استيلاء المغول على بغداد؛ مجلة المرشد البغدادية، م٤، السنة الأولى ١٩٢٩م، ص٢٢؛ ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣١٩.

(٢) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سابق، ص٢٧٢.

(٣) محمد نجم عبد الله، الموقف العربي من التحدي المغولي، أطروحة ماجستير غير منشورة، ص٩٣ ـ بغداد ١٩٨٤م.

مما تقدَّم يمكن أن ندرك موقف الوزير المهزوز لمواجهة هذا الخطر الرهيب الذي يحدق بالأمة عامة وبغداد خاصة، فهولاكو يهدد، والوزير يحاول استرضاءه ومهاداته.

مراحل الغزو المغولي تجاه بغداد ومواقف الوزير منها:

يمكن استعراض المراحل التي مر بها الغزو المغولي تجاه العراق ومواقف الوزير من كل مرحلة في ضوء النقاط التالية:

كان الموقف الخياني لابن العلقمي يزداد ويتعمق يوماً بعد آخر، فقد منع أهل بغداد من الدفاع عنها، رغم صعوبة الظروف التي كانوا يمرون بها.. فقد ذكر ابن الكازروني (ت٦٩٧هـ) ما نصه: «خرج الوزير ابن العلقمي إلى ظاهر السور للاجتماع بهولاكو، وقيل للعوام: لا تمدوا قوساً، فالوزير يدبّر الأمر إن شاء الله ويصلحه، فظن العوام ذلك حقاً، فامتنعوا عن الرمي، والمغول يرمون ويصيبون»[1]...

وذلك لأن أهل بغداد كما قال عنهم الغساني ما نصه: «فلما رأى أهل بغداد ذلك الجيش العظيم.. نصبوا المجانيق على الأسوار، واستعدوا للحصار، وظنوا أن مدة الحصار تدوم.. فأشار الوزير على

---

(١) مختصر التاريخ، ص٢٧٢.

مصانعة التتر، والخروج إليهم في تقرير الصلح لنفسه وتوثق منهم»[1].

وذكر الجوزجاني: «بأنه لما حاول الخليفة أن يستعد لملاقاة جيش العدو، قطع ابن العلقمي أرزاق الأجناد، وثبّط همة الخليفة، وصرفه عن الاستعداد بحجة أنه رتب شؤون الصلح، إلى آخر هذه الوسائل التي انخدع بها الخليفة حتى سقطت بغداد لقمة سائغة في أيدي المغول»[2]. كما يذكر الجوزجاني بأنه لم يتورع ابن العلقمي عن أن يصدر أمره في وقت المحنة بفتح سدٍّ كان مقاماً على نهرٍ يقع خارج بغداد، فغرق بسبب ذلك الكثيرون من جيش الخليفة[3].

وفي ١٠ رمضان سنة ٦٥٥هـ أرسل هولاكو إلى الخليفة طالباً منه أن يحضر للمقابلة، ويرسل له الوزير ابن العلقمي، وبعض كبار الشخصيات[4].

ومن باب مدينة همذان كتب هولاكو إلى الخليفة رسالة طالباً إليه فيها أن يرسل إليه الوزير وبعض كبار رجال الدولة[5].

---

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ص٦٣٠.
(٢) طبقات ناصري، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٨؛ تاريخ وصاف، ص٣٦.
(٣) الجوزجاني، طبقات ناصري، ص٤٢٧.
(٤) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سابق، م٢: ١/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨.
(٥) المصدر السابق، ص٢٨٤.

وعند محاصرة هولاكـو لبغداد في ١١ محرم لسـنة ٦٥٦ أرسل الخليفة الوزير والجاثليق إلى هولاكو يقول: «إن الملك قد أمر بأن أبعث إليه الوزير، وها أنا ذا قد لبيت طلبه، فينبغي أن يكون الملك عند كلمته». فرد هولاكو قائلاً: «إن هذا الشرط طلبته وأنا على باب همذان، أما الآن فنحن على باب بغداد، وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة، فكيف أقنع بواحد...»[1].

وفي يوم الإثنين ١٢ محرم سنة ٦٥٥هـ خرج الوزير إلى هولاكو مع صاحب الديوان وجميع المعارف والمشاهير[2].

وذكر ابن طباطبا في رواية له عن كمال الدين أحمد بن الضحاك، وهو ابن أخت الوزير قال: «لما نزل هولاكو على بغداد، أرسل يطلب أن يخرج الوزير إليه قال: فبعث الخليفة فطلب الوزير فحضر عنده وأنا معه فقال له الخليفة: قد أنفذ هولاكو يطلبك، وينبغي أن تخرج إليه.. ثم مضى إلى داره وتهيَّأ للخروج، ثم خرج، فلما حضر بين يدي هولاكو، وسمع كلامه، وقع بموقع الاستحسان، وكان الذي تولى تربيته في حضرة هولاكو الوزير السعيد نصير الدين محمد الطوسي...»[3].

---

(١) رشيد الدين الهمذاني، مصدر السابق، ص٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٢) المصدر السابق، ص٢٨٧.
(٣) ابن طباطبا، الفخري في الآداب، ص٣٣٨.

وفي يوم الثلاثاء ٢٩ محرم[١] لسنة ٦٥٦هـ ذهب الوزير إلى المدينة.

وفي يوم ٣٠ محرّم سنة ٦٥٦هـ خرج الوزير مع جماعة من المسؤولين إلى لقاء هولاكو وعادوا إلى المدينة.

واستدعى الخليفة المستعصم الوزير وسأله: «ما تدبير أمرنا» فأنشد الوزير:

يظنّون أن الأمرَ سهلٌ وإنما هو السيفُ حُدَّتْ للقاءِ مضاربُهْ

وفي يوم الأربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ استدعى هولاكو الخليفة، الذي كان خائفاً، وقال للوزير: «ما حيلتنا؟» فأجاب الوزير: «لحيتنا طويلة»[٢].

وفي مساء يوم الأربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ قتلوا الخليفة[٣]. . وفي مساء يوم الأربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ أرسلوا إلى المدينة

---

(١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٧٢.

(٢) وكان مراده من ذلك أنه عندما فكر أول الأمر في أن ترسل أحمال وزيره وغيره لدفع البلاء، قال الدويدار: لحية الوزير طويلة. وحاول الأخذ بهذا الرأي. «رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، ص٢٩٣».

(٣) جامع التواريخ، ص٢٩٤.

مؤيد الدين بن العلقمي ليقوم بالوزارة[1].

وفي يوم الخميس ٢٩ صفر حضر إلى بلاط هولاكو ابن الوزير شرف الدين مع صاحب الديوان لتلقي التعليمات من هولاكو، ثم عادوا[2].

موقف ابن العلقمي من احتلال المغول بغداد:

عندما دخل هولاكو بغداد محتلاً وغازياً خرج إليه ابن العلقمي مع أهله وأصحابه وخدمه وحشمه، ومن ثمَّ رجع إلى الخليفة يطلب منه مقابلة هولاكو لعقد الصلح بينهما، على أن يكون نصف خراج العراق لهم، ونصفه للخليفة، وخرج الخليفة بسبعمئة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية فقتلهم هولاكو جميعاً، باستثناء الخليفة الذي عاد إلى بغداد[3].

وفي روايةٍ أن ابن العلقمي عاد إلى الخليفة من قِبَلِ المغول وأخبره قائلاً: «إن هولاكو قد رغب بأن يزوِّج بنته بابنك أبي بكر، ويُبقيك في منصب الخلافة، كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يريد إلا أن

---

(١) جامع التواريخ، مصدر السابق، ص٢٩٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠١.

تكون الطاعة له، كما كان أجدادُكِ مع السَّلاطين السّلجوقيّة وينصرفَ عنك بجيوشـه، والرأي أن يجيبـه مولانا إلى هذا، لأن فيـه حقن دماء المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، والمصلحة أن يخرج مولانا إليه»[1].

فخرج المستعصم بالله في جمع من الأعيان إلى هولاكو، فأُنزل في خيمته، ثم دخل الوزير، فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد، فخرجوا من بغداد، فأُخذوا جميعاً وضُربت أعناقهم، وقُتل الخليفة وقيل خُنق، وقيل رُفس، وقيل غُمَّ في بساط حتى مات، ودخل التتر مدينة بغداد[2].

وقد ذكر ابن كثير أن الوزير ابن العلقمي، ونصير الدين الطوسي قد حسنوا لهولاكو قتل الخليفة. . .

ويروى أن هولاكو قد تهيب قتله، فهوَّن عليه الوزير ذلك[3]. وقُتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج

---

(١) السبكي، طبقات: ٥/ ١١٤؛ الغساني، ص٦٣؛ القلقشندي، مصدر سابق: ٢/ ٩١ـ ٩٢.

(٢) الغساني، ص٦٣٠ ـ ٦٣١.

(٣) ابن كثير، مصدر سابق: ١٣/ ٢٠١.

ابن الجوزي، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة، وأكابر الدولة واحداً بعد واحد، وجماعة من الأمراء وأكابر البلد[1]. وقتل الخليفة وأبناؤه وحاشيته وأقرباؤه.

وقال ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ): «فقد قُتل الخليفة بممالأة ابن العلقمي الملعون وزير المستعصم، وقد فعل التتر بمشورته.. من سفك للدماء، وانتهاك للحرمات، والتنكيل بالإسلام والمسلمين ما لم يسمع بمثله في أي عصر مضى»[2].

وقال الجوزجاني معلِّقاً على الحدث بقوله: «ولكن الوزير ابن العلقمي خدع الخليفة وأقنعه.. لأنه مهد طريق الصلح، وسوف يأتيه هولاكو والمغول طائعين منقادين.. ويخدعه بمعسول القول، حتى يتمَّ حبك المؤامرة...»[3].

وبعد ذلك «بذلوا السيف ببغدادَ، واستمرَّ السيف ببغدادَ بضعة وثلاثين يوماً، ولم ينجُ إلاّ من اختفى...

ويروى أن هولاكو أمر بعد ذلك بِعَدِّ القتلى، فكانوا ألفَ ألفِ

(١) ابن كثير، مصدر السابق: ١٣/ ٢٠٣.
(٢) ابن قيّم الجوزية، إغاثة اللهفان: ٢/ هامش٢٦٣.
(٣) الجوزاني، طبقات ناصري، ص٤٢٧ ـ ٤٢٨.

وثمانمئة ألف، النِّصفُ من ذلك تسعمئة ألف، غير من لم يُعدّ ومن غَرِق..»[1].

وروي أن خطبة آخر جمعة خطب فيها ببغداد كانت ما نصه: «الحمد لله الذي هدم بالموت مشيِّد الإعمار، وحكم بالموت على أهل هذه الديار، فدارت الجمعة الأخرى، والسيف يعمل في البلاد، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، وزالت الدولة العباسية مع عظم شأنها، ودوام سلطانها»[2].

ولم ينجُ منهم سوى أهل الذمة، ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمي، وطائفة من التجار[3]. واندلعت ألسنة النيران في كل جانب، فالتهمت كل ما صادفها، وأتت على الأخضر واليابس وخرّبت أكثر الأبنية وجامع الخليفة، ومشهد الإمام موسى الكاظم، وقبور الخلفاء في الرصافة[4].

ويقول ابن الوردي: «... ونكبت الإمام والأمة وسفكت دماء الشيعة والسنّة»[5].

---

(١) السبكي، مصدر سابق: ٥/ ١١٥.
(٢) الغساني، ص٦٣٠ ـ ٦٣٢.
(٣) ابن كثير، مصدر سابق: ١٣/ ٢٠٢.
(٤) لسترانج، بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير فرنسيس، ص٢٩٢ ـ ٢٩٣.
(٥) ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر: ٢/ ١٩٦.

ويصفُ السبكي وضع بغداد بعد احتلال التتار بقوله: « وانتهك الحرمُ من بيت الخليفة وغيره، وأُريقت الخمور في المساجد والجوامع، ومُنع المسلمون من الإعلان بالأذان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، هذه بغداد ـ لم تكن دار كفرٍ قطُّ ـ قد جرى عليها هذا الذي لم يقع قط منذ قامت الدنيا مثله. . وإن كان وقع في الدنيا أعظم منه، إلا أنه أضيف له هوانُ الدِّين والبلاء الذي لم يختص، بل عمَّ سائر المسلمين، وهذا أمرٌ قدره الله تعالى. . ليقضي الله ما قدَّر. . . »[1].

وقال سبط التعاويذي[2]:

بـادتْ وأهلـوهـا معـاً فبيـوتهـم   ببقـاءِ مـولانـاالـوزيـرِ خـراب

وقال بعضهم:

يا عصبةَ الإسلامِ نوحي واندُبي   حـزنـاً علـى مـا تـمَّ للمستعصـمِ
دَستُ الوزارةِ كان قبلَ زمانِه   لابنِ الفرات فصارَ لابنِ العلقمي

وأقر في الدولة التترية على الوزارة، وكابد شدة، وتغيرت أحواله، ولم يتم له ما أراد. . وذاق الهوان والذل من التتر[3].

---

(١) السبكي، مصدر سابق: ٥/ ١١٥.
(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٧٣.
(٣) الغساني، ص٦٤١.

موقف أهل بغداد من ابن العلقمي بعد احتلالها:

يروى أن بعض أهالي بغداد قال له: «... أنت فعلت ما فعلت، وقد قُتل من أهل بغداد أزيد من ألف ألف وثمانمئة ألف، وارتكبت الفواحش مع النساء الأشراف، وافتضت من أبكارهن ما لا يعلمه إلا الله تعالى فقال: لا أبالي»[1].

وفي رواية أن أهل بغداد قالوا له: «... قد قتلت من الأشراف خلق لا يُحصى وارتكبت الفواحش مع نسائهم فقال: لا مبالاة في ذلك»[2].

أما على المستوى الشعبي، فإن ابن العلقمي صار موضع سخرية من قِبَل الناس، (فكتب أهل بغداد على الجدران وأبواب المدارس والأربطة بأقلام مختلفة: «لعن الله من لا يلعن ابن العلقمي». ولما علموا أن أتباع ابن العلقمي أخذوا يمحون هذه الكتابات، راحوا يراقبونهم، وكل من يعثرون عليه يضربونه سبعين سوطاً عقوبة له...)[3]. علماً أنّ المغول أهانوا ابن العلقمي، بل عاملوه كأحد غلمانهم، وأذاقوه الذل

---

(١) الكتبي، عيون التواريخ، ٢٠ ـ ١٩٤.
(٢) الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ٢٥٣.
(٣) تاريخ وصاف، ص١٥١ ـ ١٥٢.

والهـوان»[1]. وفـي روايـةٍ: «مـات كمـداً، أو قُتـل علـى أيـديهـم سنة ٦٥٧هـ»[2].

وذكر النويري (ت٧٣٢هـ) «أن هولاكو بعد أن استقرت له الأمور ببغداد استدعى الوزير ابن العلقمي. . فلما مَثَلَ بين يدي هولاكو سبَّه ووبخه على عدم موافاته لمن هو غذى نعمته»[3].

وأكد عبد الله الشيرازي أن الوزير ابن العلقمي لم يلق ما كان يؤمّله من المغول، بل على العكس كانوا ينظرون إليه نظرة ازدراء واحتقار بسبب خيانته للخليفة، وعاملوه بمنتهى الإذلال والإهانة، إذ جعلوه تابعاً لشخص يدعى ابن عمران كان خادماً في خلافة المستعصم. . ولم يعمّر ابن العلقمي طويلاً، إذ كان حزيناً كئيباً نادماً على فعلته[4].

وأكد السيوطي أنه لم يتم للوزير مما أراد، وذاق من التتار الذل والهوان، ولم تطل أيامه بعد ذلك، واطَّرَحوه وصار معهم في صورة بعض الغلمان، ومات كمداً[5].

---

(١) الغساني، العسجد المسبوك، ص٦٤١.
(٢) الدياربكري، تاريخ الخميس: ٢/ ٣٧٧.
(٣) نهاية الأرب، صورة شمسية بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٤٩)، معارف عامة نقلاً عن الصياد، ٢٧٥.
(٤) تاريخ وصاف، ص٤١ ـ ٤٢.
(٥) تاريخ الخلفاء، ص٤٧٢ ـ ٤٧٣.

وإن هولاكو اختار لحكم بغداد الوزير السابق ابن العلقمي الذي خضع لإشراف دقيق من قبل الموظفين المغول، حيث إن المغول لم يكونوا يطمئنون تماماً إلى ابن العلقمي بسبب موقفه من المستعصم[1].

وفاة ابن العلقمي ورأي المؤرخين فيها:

مات ابن العلقمي في يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة سنة ٦٥٦هـ، وله من العمر ثلاث وستون سنة، ولي بعده ابنه عز الدين أبو الفضل محمد، فتوفي في السنة نفسها[2]. وعلق الذهبي على وفاته قائلاً: «... فمات غبناً وغماً لا رحمهُ الله»[3].

وقال ابن كثير: «... فلم يمهله الله، ولا أهمله، بل أخذه أخذ عزيزٍ مقتدر.. فمات جهداً وغماً وحزناً وندماً إلى حيث ألقت رحلها أمّ قشعم...»[4].

وقال أيضاً: «فلم يقدره الله تعالى على ذلك، بل أزال نعمته عنه،

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص٥٢٢.
(٢) رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، ص١٩٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٢٠٣/١٣.
(٣) الذهبي، دول الإسلام: ٢/ ١٦١.
(٤) ابن كثير، مصدر سابق: ١٣/ ٢٠٣.

وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة، وأتبعه بولده فاجتمعا، والله أعلم، بالدرك الأسفل من النار»[1].

وقال: «واكتسب إثم من قتل من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العليّ الكبير رب الأرض والسماء»[2].

وقال الكتبي: «. . . وندم حيث لا ينفعه الندم، وانفطرت مرارته، ومات، فنعوذ بالله من حظوظ أنفسنا»[3].

وقال أيضاً: «فمات كمداً ولقاه الله تعالى فعله»[4].

وقال السيوطي: «. . . لا رحمه الله ولا عفا عنه»[5].

وقال ابن العماد الحنبلي: «. . . قاتله الله . . »[6].

وقال السيد محب الدين الخطيب: «إن ابن العلقمي الذي قابل بالخيانة والغدر تسامح الخليفة المستعصم، وكرّمه باتخاذه إياه وزيراً

---

(١) ابن كثير، مصدر السابق: ١٣/ ٢٠٣.
(٢) المصدر السابق: ١٣/ ٢٠٢.
(٣) الكتبي، عيون التواريخ: ٢٠/ ١٩٣.
(٤) المصدر السابق: ٢٠/ ١٣٦.
(٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٧٣.
(٦) ابن العماد الحنبلي، شذرات: ٥/ ٢٧٠.

له، نزع به عرق الخيانة واللؤم بما جزى به إحسان من أحسن إليه . . ولا تزال الأعاجم إلى هذه العصور المتأخرة تتلذذ بالشماتة وتتمتع بالعداوة للإسلام بما حلَّ به في نكبة هولاكو . . . »[1] .

وهكذا فإن كان بعض الناس يغفرون ذنوب الآخرين ، فإن الله تعالى لا يغفر لمثل من يرتكب مثل هذا العمل الرهيب، وإن التاريخ لا يغفر للمسيء، وهكذا نرى أقوال ثقات المؤرخين بحقه وبشدة بالوزير ابن العلقمي ولم تترحم عليه أبداً .

مناقشة لآراء المدافعين عن ابن العلقمي :

كان من أبرز المؤرخين القدامى الذين دافعوا عنه هو المؤرخ ابن طباطبا ، الذي قال عنه : «وكان مؤيد الدين الوزير عفيفاً عن أموال الدين وأموال الرعية متنزهاً مترفعاً»[2] .

وقال أيضاً : «وكان خواص الخليفة جميعهم يكرهونه ويحسدونه ، وكان الخليفة يعتقد فيه ويحبه، وكثروا عليه عنده ، فكفَّ يده عن أكثر الأمور، ونسبه الناس إلى أنه خامر ، وليس ذلك بصحيح ، ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة ، فإن السلطان هولاكو لما

---

(١) السيد محب الدين الخطيب ، الخطوط العريضة ـ الرياض ، ١٣٨٠هـ، ص٣٣ .
(٢) ابن طباطبا ، الفخري ، ص٣٣٨ .

احتل بغداد وقتل الخليفة سلَّم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكَّمه، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه»[1].

ويمكن أن نناقش آراءه في الملاحظات الآتية:

١ ـ أن ابن طباطبا عُرِف عنه، أنه المؤرخ الوحيد الذي يدافع بكل صراحة ووضوح عن ابن العلقمي، فكان تحيّزه واضحاً، الأمر الذي لا يعوّل على رأيه، بسبب ابتعاده عن روح الحياد والموضوعية الحقة.

٢ ـ أن عبارة: «فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه» تدلل لنا أنه بسبب إخلاصه للخليفة قد أبقاه هولاكو، واعتمد عليه، ووثق به، وهذه مغالطة للحقيقة.. لأن هولاكو كان عدواً لدوداً للإسلام ولرجاله المخلصين، فإنه قضى على الخليفة والمخلصين له.. فإن ما ذكره ابن طباطبا من ثقة هولاكو به تعدُّ إدانة للوزير، ذلك لأن هولاكو قضى على كافة المخلصين.. فعلى سبيل المثال إن قتل هولاكو لابن ابن الجوزي يعود لكونه مخلصاً للخليفة»[2].

٣ ـ وقد قال ابن طباطبا عن الطوسي: «الوزير السعيد نصر الدين

---

(١) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص٣٣٨.
(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٢٨.

محمد الطوسي، قدس الله روحه»[١]. وهذا التقديس والمدح للطوسي هو خلاف ما ذكره المؤرخون الذين كانوا ينتقدون الطوسي، الذي كان يرافق هولاكو في حملته على بغداد، حتى إنّ نظمي زاده قال عن هولاكو: «وبتشويق من نصير الطوسي اتجه نحو بغداد..»[٢].

وقال السبكي عن الطوسي: «الشيطان المبين.. من أشد الناس على المسلمين»[٣].

٤ ـ وقد قال براون عن ابن طباطبا: «ولم يكن الفخري يكتب ما يشاء ويسجل ما يريد، ولكنه كان يكتب، وهو يعلم أنه يعيش تحت حكم مغولي أيام غازان حفيد هولاكو»[٤].. فهذا رد صريح من مستشرق على اتجاهات ابن طباطبا، ومن هنا يتبين لنا أن آراء ابن طباطبا في إشادته بابن العلقمي لا يركن إليها، ولا يؤخذ بها.

وقال الدكتور الصياد عن ابن طباطبا: «إذا كان صاحب الفخري قد دافع بحرارة عن موقف ابن العلقمي، وسعى جاهداً لدفع تهمة الخيانة

---

(١) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص٣٣٨.
(٢) نظمي زاده، كلش خلفا، ص١٢٧.
(٣) السبكي، طبقات: ٥/ ١١٥.
(٤) انظر براون، تاريخ الأدب في إيران، ترجمة د. إبراهيم أمين: ٢/ ٥٨٧.

عنه، فما ذلك إلا لأنه أحس بفداحة الجرم الذي أقدم عليه صاحبه، إذ كان بتصرفه هذا عاملاً هاماً في ضياع دولة، وذهاب شخصية لها مقام ديني كبير في نفوس المسلمين.. وهكذا راح ابن طباطبا تحت تأثير العصبية يدافع عن ابن العلقمي، وينفي عنه تهمة التواطؤ مع المغول...

والحقيقة التي لا شك فيها أننا لا يمكننا أن نطمئن إلى ما جاء في (الفخري) ولا في (جامع التواريخ) بخصوص ابن العلقمي، ذلك لأن أغلب المصادر الإسلامية قد أدانت هذا الوزير، واتّهمته بالخيانة، وكلها مصادر معتبرة موثوق فيها...

والحقيقة أننا على ضوء المصادر والقرائن السابقة نستطيع أن نقول إنّ موقف ابن العلقمي لم يكن سليماً على الإطلاق...»[1].

ومن أبرز المؤرخين المعاصرين الذين دافعوا عنه، وأشادوا به، هو الأستاذ الدكتور جعفر خصباك، الذي قال: «وقد أدت بنا دراستنا للتهمة الموجهة للوزير ابن العلقمي، إلى رفضها..»[2].

وقال الدكتور خصباك: «يكاد المؤرخون يتفقون في الثناء على

---

(١) انظر د. الصياد، ص٢٧٣ ـ ٢٧٨.

(٢) د. جعفر خصباك، العراق في عهد المغول الإيلخانيين، ط١ ـ بغداد، ١٩٦٨م، الفصل الثاني، ص٢٦ ـ ٤٣.

شخصية ابن العلقمي» ومن اعتمدهم من المؤرخين في هذه الفترة هم ثلاثة: ابن طباطبا وابن الجوزي والخزرجي، في حين جرّح ابن العلقمي وانتقده بشدة كلٌّ من: أبو شامة (ت٦٦٥هـ)، والأربلي (ت٧١٧هـ)، واليونيني (ت٧٢٦هـ)، والذهبي (ت٧٤٨هـ)، وابن الوردي (ت٧٥٠هـ) والكتبي (ت٧٦٤هـ)، والصفدي (ت٧٦٤هـ) والسبكي (ت٧٧١هـ)، وعبد الله بن فضل الشيرازي، وابن كثير (ت٧٧٤هـ)، وابن خلدون (ت٨٠٨هـ)، والسيوطي (ت٩١١هـ) والدياربكري (ت٩٩٠هـ)، وابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ).

ومما لا شك فيه أنّ الذين أشادوا به وأثنوا عليه كانوا يثنون عليه بالدرجة الأولى في ميدان الأدب، إلا أنهم عندما يأتون إلى مناقشة المسائل السياسية فإن الأمر يختلف تماماً، وهذا الثناء على علمه بالأدب لا ينفي قصر نظره في التخطيط السياسي والعسكري لأمن بلاد الخلافة في مواجهة الخطر المغولي، فتجد من هو بارع في علمه، أو أديب بليغ في أدبه، ولكنه قد يكون مهادناً لأعداء أمته أو خائناً لدينه، فما قيمة علمه وأدبه.

وقد أورد عدة نقاط في (أ، ب، ج) وبيَّن فيها أن العراق كان هدفاً من أهداف الغزو المغولي، وليس ابن العلقمي هو الذي حدد هذا الهدف.

وفي رأينا أن هدف الغزو المغولي كان كل العالم الإسلامي وبما في ذلك العراق، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن ابن العلقمي هو الذي حدد لهم العراق كهدف من أهدافهم الأساسية، فالخطر المغولي كان قائماً، وهدفهم العراق وغيره، ولكن لما كان الوزير يعلم هذه الحقيقة، فكان الأجدر به أن يعمل بكل إمكاناته من أجل عرقلة ومنع تحقيق هذا الهدف.

ولكن ما ذكره المؤرخون يبيّن لنا أنه «هو الذي جرأه ـ أي هولاكو ـ على أخذ بغداد» و «وسهل عليهم ملك العراق» و «تهوين أمر العراق عليهم وتحريضهم على أخذها، و «أطمعهم في بغداد» و «حرضهم على قصدها»، وهو الذي «جسَّر التتار على العراق»[1]. فنحن لا نقول: إن ابن العلقمي هو الذي أخرج الثعبان من غاره، فالخطر كان قائماً قبل أن يجيء، وهدف غزو بغداد كان من أهدافهم أيضاً، ولكن ما ذكرته المصادر تؤكد أنه هو الذي شجعهم وجرأهم على تحقيق هذا الهدف.

لقد جزم الدكتور خصباك بصورة قاطعة بأن «الوزير كان ضعيفاً غير مسموع القول، وليس له نفوذ على الخليفة...». والهدف من ذلك عدم تحميله مسؤولية ما حدث في بغداد...

---

(١) انظر ما تقدم عن موقف ابن العلقمي من الغزو المغولي.

ولكن المصادر تذكر أنه كان يتمتع بهذا النفوذ منذ أن كان أستاذاً لدار الخلافة، وقبل أن يعيَّن وزيراً فيها، حتى «إنه عندما كان أستاذ الدار أخذ البيعة للمستعصم، وليس وزيره أبو الأزهر بن الناقد الذي كان مسناً»[1]. وازداد نفوذه في وزارته.

قال المؤرِّخ ابن كثير (ت٧٧٤هـ): «... غير أنه حصل له من التعظيم والوجاهة في أيام المستعصم ما لم يحصل لغيره من الوزراء»[2].

وقال السيوطي (ت٩١١هـ): «ثم ركن المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين.. ولعب بالخليفة كيف أراد»[3].

وحتى ابن طباطبا الذي كان يدافع عنه قال: «وكان الخليفة يعتقد فيه ويحبه...»[4].

وقال عبد الله الشيرازي: «وكان الذي يدير الأمور، وينظّم الأعمال مؤيد الدين ابن العلقمي»[5].

---

(١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٦٧.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢١٢.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص٤٦٥.
(٤) الفخري في الآداب السلطانية، ص٣٣٨.
(٥) انظر نظمي زاده، كلش خلفا، ص١٣٧.

هذا عن الوزن السياسي الذي كان يتمتع به الوزير عند الخليفة المستعصم بالله.

أما عن دوره في إضعاف الجيش العباسي، فقد تطرقنا إلى هذا الموضوع الذي أوضحنا فيه دور الوزير في تسريح الجند وقطع أرزاقهم، حتى إنّ الذهبي (ت٧٤٨هـ) قال: «كل ذلك من عمل الوزير ابن العلقمي»[١]. وقال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): «... وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي..»[٢].

وقد بيّنّا مواقف الوزير من الغزو المغولي باتجاه بغداد، وطلب هولاكو مرات عديدة مقابلة الوزير، أولها عندما كان على باب همذان، ومن ثمَّ لقاؤه به في ١٢ محرم سنة ٦٥٦هـ، وفي يوم الثلاثاء ٢٩ محرم، وفي يوم الأربعاء ٣٠ محرم[٣].. كل هذا الذي حصل ونقول إن الوزير لم يكن له دور؟.. بل كان له أكثر من دور مهم وأساسي.

لقد نفى الدكتور خصباك أن يكون للوزير أي دور عن تآمره مع المغول ليُنَصِّب خليفة علوياً بدلاً من المستعصم، ويستشهد بدليل قتل

---

(١) الذهبي، دول الإسلام: ٢/ ١٥٦.
(٢) ابن كثير، مصدر سابق: ١٣/ ٢٠٠.
(٣) انظر موقف ابن العلقمي من مراحل الغزو المغولي.

المغول لعدد من العلويين.

نقول: إن هذا التبرير لا يقف دليلاً قوياً، ذلك لأن تصرفات الوزير ومواقفه لا ترضي حتى العلويين أنفسهم، لأنهم عرب أولاً، ومن بني هاشم، إضافةً إلى ذلك فإنّ المغول بصفتهم غزاة وأعداء كان هدفهم بغداد وما فيها، وإنهم لم يميّزوا بين عَلَوي وعباسي، لأنه لم يكن هدفهم تنصيب علوي، أو خلع عباسي، رغم ما أشار عليهم الوزير بذلك، كما ذكرته بعض المصادر.

قال الغساني: «فإنه راح تحت السيف الشيعة والسنّة معاً وأمم لا يحصون»[1].

وقال ابن الوردي: «... ونكبت الإمام والأمة، وسفكت دماء الشيعة والسنّة»[2].

وأكد لسترنج أنه «خربت أكثر الأبنية، وجامع الخليفة، ومشهد الإمام موسى الكاظم، وقبور الخلفاء في الرصافة»[3].

---

(١) الغساني، العسجد، ص٦٤١.
(٢) تتمة المختصر في أخبار البشر: ٢/ ١٩٦.
(٣) لسترنج، بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير فرنسيس، ص٢٩٢ ـ ٢٩٣.

ويرى الدكتور خصباك في «رابعاً وخامساً» أن ما قيل عن المراسلات السرية لا تستند إلى أي دليل. . ويقول: «إن الوضع والتكلف يتضحان من نصوص الروايات التي تتهم الوزير. . . ».

ونحن نقول: إن الدليل على حصول المراسلات هو المصادر التاريخية الموثقة التي أوردتها، فالذي يضعّف شيخ المؤرخين الإمام الذهبي (ت٧٤٨)، والإمام ابن كثير أوالسبكي، لابد أن يكون اطلاعه على الأحداث التي أوردها أقرب منهم، وعلمه عن هذه الحقبة الزمنية أعلم منهم، فلا يُقوِّم العالِم إلا من هو أعلم منه، فنحن نعيش في سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م[1]. واحتلال بغداد كان في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، فنحن بعيدون كثيراً عن المؤرخ أبي شامة، الذي كان معاصراً لاحتلال بغداد، وقد توفي سنة ٦٦٥هـ. . والذهبي الذي توفي سنة ٧٤٨هـ، فهؤلاء المؤرخون مشهود لهم بالأمانة والثقة، وهم ـ وكثير غيرهم ـ ثقات، أوردوا لنا حقيقة الأحداث بدقائقها وتفصيلاتها، فإذا لم يكن هؤلاء دليلنا فمن هو الدليل البديل؟ .

يرى الدكتور خصباك: «أنّ الزعم بأن الخلفاء السابقين للمستعصم بالله خصوصاً المستنصر بالله يتخذون جيوشاً كبيرة، وإن الوزير ابن العلقمي عمل على صرفها وتفريقها أمر مردود».

---

(١) كان هذا التاريخ عند تأليف المؤلّف للكتاب

نقول: كيف يُردُّ مثل هذا الأمر الخطير بهذه السهولة، وقد ذكرها من المؤرخين الذهبي[1]، والكتبي[2]، وابن الكازروني[3]، والسبكي[4] وابن كثير[5]، ونظمي زاده[6] والقلقشندي[7].. وقد أكَّد هؤلاء أنّ ابن العلقمي هو الذي فرّق الجنود وصرفها وقطع الأرزاق عنها.

يضاف إلى ذلك أن المصادر تذكر أن العساكر في أواخر أيام المستنصر بالله كانت قريباً من مئة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك. ولم يُبقِ منهم ابن العلقمي سوى عشرة آلاف[8]. وعندما توفي المستنصر بالله قال أخوه المعروف بالخفاجي: «إن ملكني الله الأرض لأعبرن بالجيوش نهر جيحون وأنتزع البلاد من التتار واستأصلهم»[9].. فهذا يدل على أن الخلفاء السابقين للمستعصم كانوا

---

(١) دول الإسلام: ٢/ ١٥٦.
(٢) عيون التواريخ: ٢/ ١٣٢.
(٣) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٧٠.
(٤) طبقات الشافعية: ٥/ ١١٠.
(٥) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠١_٢٠٢.
(٦) نظمي زاده، كلش خلفا، ص١٢٨.
(٧) مآثر الإنافة: ٢/ ٩١.
(٨) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠٠_٢٠٢.
(٩) السبكي، طبقات: ٥/ ١١٠.

يهتمون بالجيـوش، إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليـه في بداية عهد المستعصم، وإلا فكيف يهدد الخفاجي باجتياح أرض التتار. . والأهم من كل ذلك الانتصار الكبير الذي حققته قوات الخليفة المستنصر بالله على المغول سنة ٦٤٢هـ.

قال ابن الكازروني في حديثه عن المستعصم بالله: «. . . فإن عساكر المغول دهمته، ونزلت بين الكشك العتيق والملكيَّة في السابع عشر من ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وستمئة، فتلقاهم بعزم شديد، ورأي سديد، وأخرج إليهم إقبالاً الشرابي بعسكر الديوان، وثبت لهم إلى الليل، ثم لاحت لهم أمارات قوة عسكر بغداد، فانهزموا ليلاً، ولم يلاقوهم، وعادت عساكر بغداد منصورة محروسة من العدو ببركته[1]. فماذا يفسر هذا الانتصار على المغول في سنة ٦٤٢هـ. . أليس هو دليل قوة الجيش، وانتظام أمره، إذا ما علمنا أن خطط ابن العلقمي لإضعاف الجيش قد بدأ بتنفيذها سنة ٦٤٨هـ.

ويقول الدكتور خصباك: «إن هناك مصادر مهمة لم ترد فيها أية إشارة إلى خيانة الوزير. . . ».

وهي كتاب (جهانكشاي) لعطاملك الجويني، وكتاب عبد الرحمن

---

(١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٦٨.

سنبط بن قنيتو الأربلي، وكتاب أبو الفرج ابن العبري، وكتاب ابن طباطبا. . ويعتبر الدكتور خصباك هؤلاء المؤرخين الأربعة هم الأساس والمعتمد في التوثيق التاريخي عن هذا الموضوع.

فنحن نقول: إن المصادر الأربعة التي ذكرها جميعها مصادر غير عربية إطلاقاً، وهي تعكس وجهات نظر أصحابها، التي تتناقض تماماً مع ما ذكرته المصادر العربية والإسلامية الموثقة الأخرى، إذا ما علمنا أن من بين مصادره الأربعة ابن طباطبا. . وقد ناقشنا قضية ومواقف هذا الشخص المتحيز لابن العلقمي، والذي كان يدافع عن الوزير بلا علم ولا دراية.

فهذه المصادر وأصحابها لا تهم قضية احتلال بغداد، بقدر ما تهم المؤرخين العرب والمسلمين، وخاصة الثقات منهم، والذين أكدوا بصراحة خيانته، وهم ما يقارب ثلاثة عشر مؤرخاً، منهم أبو شامة، واليونيني، والذهبي، وعبد الله الشيرازي، وابن الوردي، والكتبي، والصفدي، والسبكي، وابن كثير، وابن خلدون، والسيوطي، والدياربكري، وابن العماد الحنبلي.

فأين تقف المصادر الأربعة التي ذكرها من هذه المصادر الثلاثة عشر التي ذكرتها.

ويقول الدكتور خصباك: «إن إبقاء المغول للوزير وزيراً لا يقوم حجة على خيانته.. وقد كان هولاكو بحاجة إلى من يدير العراق بعد احتلاله».

وفي مكان آخر يعتقد الدكتور خصباك أن هولاكو قتله بعد احتلال بغداد، في حين تؤكد المصادر بأن هولاكو قد عيَّن على بغداد قبل رحيله الوزير ابن العلقمي، الذي كان يُنفذ سياسة الموظفين المغول[1].

إذن فإن هذا يدل على أن هولاكو كان يقتل كل من هو مخلص للخليفة والخلافة.. فلماذا لم يقتل ابن العلقمي، لو كان مخلصاً للخلافة؟.. ولو كان هولاكو محتاجاً حقاً لخبرته، فلماذا لم يبقِ على القائد الدويدار، الذي كان خبيراً بالشؤون العسكرية؟.. ولو كان بحاجة للخبرة، فلماذا عيّن ابن الوزير وزيراً بعد وفاة أبيه، والذي لم تكن له دراية بالوزارة وأمورها؟!.

ثم يورد الدكتور خصباك تعليلاً مردوده سلبي على كل الآراء التي دافع فيها عن ابن العلقمي عندما قال: «والأرجح أن شفاعة نصير الدين الطوسي له كانت أهم سبب في بقائه»، إذا ما علمنا أن نصير الدين

---

(١) الدكتور السيد الباز العريني، المغول، ص٢٢٢.

الطوسي هو الذي رافق هولاكو في حملته على بغداد، قال ابن كثير: «والمولى نصير الدين الطوسي كان النصير عند هولاكو، قد استصحبه في خدمته. . .»[1].

وأخيراً يقول الدكتور خصباك: «أما سقوط بغداد نفسها فلم يكن للوزير أي دخل فيه. . . والخلاصة هناك دلائل تدين ابن العلقمي لو صحت ما كانت تعمل أكثر من تشجيع هولاكو على قصد العراق». . بهذه العبارة اختتم الدكتور خصباك حديثه ودفاعه عن ابن العلقمي والذي ناقشناه هنا.

ولابد من الإشارة إلى أن الدكتور خصباك كان يكثر من ترديد كلمة «فتح بغداد» على يد هولاكو. . وأرى أنه من الصواب استخدام كلمة «غزو بغداد» أو «تدمير بغداد». . لأن هذه الكلمة أنسب وأوضح لأنها تدل على شيء اسمه العنف والقتل والإبادة والتدمير الشامل. . أما كلمة فتح فهي مغايرة تماماً لهذه المعاني.



---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠١.

المبحث الثاني

الطوسي في محكمة التاريخ

سنتناول في هذا المبحث موقف الطوسي من الاحتلال المغولي لبغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م وذلك في ضوء الفقرات الآتية:

١ ـ اسمه ونسبه

٢ ـ ولادته

٣ ـ نشأته وعلاقته بالإسماعيلية

٤ ـ دور الطوسي في الغزو المغولي لبغداد

٥ ـ آراء في الطوسي.

المبحث الثاني

الطوسي في محكمة التاريخ

اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله محمد بن الحسن[1]، ويعرف بالمولى نصير الدين، ويقال له أيضاً الخواجة نصير الدين[2] الطوسي، نسبة إلى مدينة طوس الإيرانية التي ولد فيها، والتي تقع في إقليم خراسان، وتبعد مسافة عشرة فراسخ[3] عن مدينة نيسابور[4].

ولادته:

ولد الخواجة الطوسي في يوم السبت الحادي عشر من

---

(١) الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق د. إحسان عباس: ٢/ ٢٤٦ - بيروت، ١٩٧٣م؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ٥/ ٣٣٩ - القاهرة، ١٣٥٠ - ١٣٥١هـ.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٦٧ - القاهرة، ١٣٥٨هـ.

(٣) الفرسخ: وحدة لقياس المسافة = ٣أميال، انظر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة د. كامل العسلي - عمان، ١٩٧٠م، ص٩٤.

(٤) الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ٢٥٢.

جمادى الأولى سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠ ـ ١٢٠١م[1]، وولد في ناحية جهردد، من نواحي مدينة طوس[2].

نشأته وعلاقته بالإسماعيلية:

اتجه الطوسي إلى الدراسة والتعليم في مدينة نيسابور، وعندما اجتاحها الغزو المغولي بقيادة جنكيزخان (١٢١٥ ـ ١٢٢٧م) عاد إلى طوس، ومن ثم أصبح مطمحاً لأنظار الإسماعيليين في شخص ناصر الدين عبد الرحيم بن أبي منصور الإسماعيلي حاكم قوهستان، وأكبر وزراء علاء الدين محمد بن جلال الدين حسن، داعي الإسماعيلية الأكبر.. فوجه للطوسي دعوة لزيارته في قوهستان، وبقي في قلاع الإسماعيلية (الحشاشين) زهاء (٢٨) سنة.. إلى أن كاتب المغول سراً في حوالي سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م[3].

والإسماعيلية طائفة من غلاة الباطنية، الذين خرجوا عن الإسلام بكثير من العقائد التي يذهبون إليها، ولهم في الكيد للمسلمين تاريخ

---

(١) انظر رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، تاريخ الخلفاء، جنكيز خان ـ بيروت، ١٩٨٣م، ص٣٠٤؛ الصفدي: ١٢/ ١٨٣؛ ابن الوردي، تاريخ: ٢/ ٢٢٣ ـ القاهرة.

(٢) د. الأعسم، نصير الدين الطوسي، ص١١، ٢٢، ٢٣.

(٣) الأعسم، مصدر سابق، ص٢٢ ـ ٤٦.

سيِّئ قبيح مشهور، وبخاصة في الشام، وكان المسلمون يقفون لهم بالمرصاد، وعلى مر الزمان والعصور[1] . . ففي سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م أحرق صلاح الدين الأيوبي قلاعهم وديارهم[2] .

وفي سنة٦٥١هـ/ ١٢٥٣م، أصدر إمبراطور المغول مانغوخان أمراً إلى أخيه هولاكو خان، يأمره فيه بالتوجّه لإخضاع البلاد العربية، ومنها بغداد[3] .

والمعروف عن المغول أنهم كانوا يدمِّرون كل بلد يمرون فيه، باستثناء ما فعلوه عند دخولهم إيران، وبالأخص مدينة طوس: «حيث أمر هولاكو بتجديد عمارة بعض المدن، ودفع التكاليف اللازمة من الخزانة حتى لا يتحمل الرعايا عبء هذه النفقات، ثم حفرت الكظائم (الكهاريز) وشيدت المصانع . . . »[4] .

---

(١) د. محمد يوسف موسى، ابن تيمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة، ١٩٧٧م، ص٤٠ـ ٤١ .

(٢) ابن الوردي، مصدر سابق: ٢/ ٨٧ .

(٣) د. خصباك، العراق في عهد المغول الإيلخانيين ـ بغداد ، ١٩٦٨م، ص٣٥ـ ٣٦ .

(٤) رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، م٢ : ١/ ٢٤٩ـ ٢٥٠، الإيلخانيون ـ القاهرة، ١٩٦٠م .

ويمكن أن يقارن المرء بين ما فعله هولاكو بطوس، وما فعله في بغداد من التدمير والتخريب.

ثم اتّجه هولاكو بعد ذلك إلى قلاع طائفة الغلاة الإسماعيلية.. وكان الطوسي وزيراً لشمس الشموس، ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وكانوا ينتسبون إلى نزار بن المستنصر[1]. وقال ابن كثير عن الطوسي: «وزَّر لأصحاب قلاع الألموت من الإسماعيلية...»[2].

وفي يوم ٩ جمادى الآخرة من سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م شرع هولاكو بالهجوم على قلاع الملاحدة الإسماعيلية، وإذا بالطوسي وموفق الدولة (اليهودي الأصل) وآخرين قد «مالوا إلى هولاكو خان إلى أقصى حد، ومن قبل كانوا يرغبون في ذلك، فصاروا يتشاورون سرّاً لكي يجعلوا هذا الملك ـ أي الإسماعيلي ـ يخضع لهولاكو على الوجه الأحسن، والطريق الأسهل.. واتفقوا جميعاً على تحقيق هذا الهدف، ولهذا السبب لم يدخروا وسعاً في حث خورشاه الإسماعيلي على الخضوع والطاعة، وصاروا يخوفونه مغبة المقاومة.. فاستجاب لنصحهم»[3].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ١١/ ٢٠١.

(٢) المصدر السابق: ١٣/ ٢٦٧.

(٣) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سابق، م٢: ١/ ٢٤٩ـ٢٥٠.

وكان خورشاه قد استشار الأمراء والأعيان في ولايته، وصار كل منهم يقول ما يمليه عليه رأيه.. وأخيراً استقر الرأي على أن يذهب إلى هولاكو الخواجة الطوسي مع طائفة من الوزراء والأعيان، يحملون التحف والطرائف الكثيرة، فوصلوا إلى معسكر الإيلخان في يوم الجمعة ٢٧ شوال، فأنزلهم المغول في أماكن متفرقة، وتحدثوا إليهم الواحد بعد الآخر[١].

إذا ما علمنا أن الطوسي كان معزَّزاً مكرَّماً عند الإسماعيلية، ومع ذلك خانهم، وتعاون مع المغول، حيث قال كريم أقسرائي في مسامرة أخباره: «وكان الطوسي الوزير المطلق لدى الإسماعيليين، وإنه بلغ عندهم مرتبة أطلقوا فيها عليه لقب أستاذ الكائنات»[٢].

«وكان الطوسي قد غرَّر بخورشاه، وخدعه، وشجعه على التسليم، مما أفقده حياته وملكه وطائفته، وأصبح بعد ذلك اليد اليمنى لهولاكو ووزيراً له»[٣].

---

(١) رشيد الدين الهمذاني، مصدر السابق، م٢: ١/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٢) محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٤٦/٧ ـ بيروت، ١٩٥٩م.

(٣) Guartermere Etienne: Mongos, De La porse idin histore Des Amsterdam Oriental press (1908 p.185) Ibid: p.185.

وكان للطوسي وأصدقائه أكبر الأثر في حمل خورشاه على التسليم لهولاكو، فلما جاء هولاكو مالوا إليه، وأظهروا الانقياد له والطاعة، ومهدوا له الانتصار على الإسماعيلية.

قال المؤرخ رشيد الدين الهمذاني: «لما وضح لهولاكو صدق الخواجة نصير الدين الطوسي ورئيس الدولة وموفق الدولة وأبنائهما، الذين كانوا أطباء مشهورين، وأصلهم من همذان تعطف عليهم، وأحسن معاملتهم، وأمر بإخراجهم مع أهليهم وذويهم وخدمهم وحشمهم، وجميع ما يتعلق بهم، وألحقهم بخدمته؛ فصاروا هم وأبناؤهم مقربين من هولاكو ومن أبنائه المشهورين»[1].

قال ابن العبري: «وأصبح نصير الدين بعد ذلك اليد اليمنى لهولاكو ووزيراً له»[2].

ومن الجدير بالذكر أن موفق الدولة هذا كان جدّ المؤرخ رشيد الدين الهمذاني، وأصلهم من يهود همذان.

---

(١) د. الصياد، د. فؤاد عبد المعطي، مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٣٠

(٢) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، تحقيق الأب صالحاني ـ بيروت، ١٨٩٠م، ص٢٦٢ ، ٢٦٤.

وقال رشيد الهمذاني معلقاً على ثقة هولاكو بالطوسي ما نصه: «ولما تأكد هولاكو من صدق وإخلاص الخواجة نصير الدين الطوسي وموفق الدولة، شملهم بعطفه وإنعامه، وأعطاهم الخيول اللازمة لحمل أهلهم ومواليهم وأقربائهم مع أتباعهم وخدمهم وأشياعهم، وأخرجهم من القلعة، وألزمهم حضرته، وهم وأبناؤهم حتى اليوم ملازمون للحضرة، ومقرَّبون من هولاكو خان وأفراد أسرته المشهورين»[١]، ومن ثم اتخذ هولاكو الطوسي وزيراً له[٢].

وهكذا كان للطوسي دَوْره في احتلال هولاكو لقلاع الإسماعيلية، فودع بذلك حصن الإسماعيلية، ليجد العناية والرعاية من قبل هولاكو، وقال الطوسي شعراً بمناسبة احتلال هولاكو لقلاع الإسماعيلية قال فيه:

سال عرب جوششصد بنجاه وجار
شد يك شنبه أول مه ذي القعدة ما مداد
خورشاه بادشاه سماعيليان زتخت
برخاست بيش تحت هولاكو بايستاد

---

(١) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سابق، ص٢٥٧.
(٢) ابن كثير، مصدر سابق: ١٣/ ٢٦٥ـ٢٦٨.

ومعناهما:

«عندما صارت سنة العرب أربعاً وخمسين وستمئة، وفي صباح يوم الأحد الموافق غرة ذي القعدة، قام خورشاه ملك الإسماعيلية من على عرشه، ووقف بين يدي هولاكو»[1].

ويبدو أنه كان للمغول عِلْم بدَوْر الطوسي ومكانته في الإسماعيلية، وأن ذلك يشير إلى علاقة خفيَّة بين هولاكو والطوسي.. فيروى أن ملك المغول (منكوقا آن) لما ودع أخاه هولاكو خان، كلّفه بأن يرسل إليه الخواجة نصير الدين الطوسي.

دور الطوسي في الغزو المغولي لبغداد:

بعد التنسيق الذي تم بين المغول والطوسي، اتخذه هولاكو وزيراً له، وكان معه اعتباراً من ذي القعدة سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م وحتى الاحتلال المغولي لبغداد في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م أي ما يزيد على السنتين تقريباً[2]. ويشير رشيد الدين الهمذاني إلى ثقة هولاكو بالطوسي فيقول: «ذلك لأنه كان قد اطلع على حسن سيرة نصير الدين، وصدق سريرته،

---

(١) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سابق، م٢، ج١.
(٢) ابن كثير، مصدر سابق: ١٣/ ٢٦٧؛ رشيد الدين الهمذاني، م٢: ١/ ٢٥١.

فكان يريد أن يظل ملازماً له»[1].

وقال الصفدي: «وكان ذا حرمة وافرة، ومنزلة عالية عند هولاكو، وكان يطيعه فيما يشير عليه، والأموال في تصريفه. . وكان منجّماً بعد أبيه، وكان يعمل الوزارة لهولاكو. . واحتوى على عقله، حتى إنه لا يركب ولا يسافر إلا في وقت يأمره به. . وولاه هولاكو جميع الأوقاف في سائر بلاده، وكان له في كل بلد نائب يشغل الأوقاف، ويأخذ عُشرها، ويُحمل إليه. . . »[2].

وقال ابن العماد الحنبلي عن الطوسي: «كان ذا منزلة عند هولاكو»[3]. وقال ابن الوردي: «وخدم هولاكو وحظى عنده. . . »[4].

ويبدو أن المغول كانوا متهيبين من أمر مهاجمة العراق، واحتلال بغداد، بسبب ما كان متداولاً حينذاك من المكانة الكبيرة لبغداد، ولعظمتها ومنزلتها الدينية في الوطن العربي والعالم الإسلامي، ولقد خوَّف المنجمون هولاكو من أمر التوجه للعراق، ولذلك اجتمع المغول في سنة

---

(١) رشيد الدين الهمذاني، م٢: ١/ ٣٠٣-٣٠٤.
(٢) الصفدي: ١٢/ ١٧٩، ١٨٢.
(٣) ابن العماد الحنبلي، الشذرات: ٥/ ٣٣٩-٣٤٠.
(٤) ابن الوردي، تاريخ: ٢/ ٢٢٣.

٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، وتشاوروا تحت رئاسة هولاكو في أمر احتلال العراق[1]. وظل هولاكو يتشاور مع أركان الدولة في أمر تصميمه على التوجّه إلى بغداد، فكان كل منهم يُبدي رأيه حسب ما يعتقد، ثم طلب حسام الدين المنجّم، الذي كان مصاحباً له بأمر، ليختاروا وقت النزول والركوب، فقال له هولاكو: «بيِّن كل ما يبدو لك في النجوم دون مداهنة». . ولما كانت له جرأة بسبب تقربه منه، فقد قال لهولاكو بصورة مطلقة: «إنه ليس ميموناً قصد أُسرة الخلافة، والزحف بالجيش إلى بغداد، إذ إن كل ملك ـ حتى زماننا هذا ـ قصد بغداد والعباسيين لم يستمتع بالملك والعمر، وإذا لم يصغ الملك إلى كلامي، وذهب إلى هناك، فستظهر ستة أنواع من الفساد:

أولها: أن تنفق الخيول كلها، ويمرض الجند.

ثانيها: أن الشمس لا تطلع.

ثالثهما: أن المطر لا ينزل.

رابعهما: تهب ريح صرصر، وينهار العالم بالزلزال.

خامسها: أن الملك الأعظم يموت في تلك السنة.

سادسها: لا ينبت النبات في الأرض.

---

(١) د. بدري محمد فهد، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ـ بغداد، ١٩٧٣م، ص٩٣.

فطلب منه هولاكو شهادة بصحة هذا الكلام، فكتبها[1].

وكان حسام الدين المنجّم يهدف من وراء ذلك تنحية هولاكو عن عزمه من التوجه إلى بغداد، خاصة أن الخليفة المستعصم قد أرسل برسالة لهولاكو، يشير فيها إلى جانب من قدسية الخلافة، وحرمت بغداد على كل من حاول تدنيسها، وكان نصها: «لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطّلعين على الأحوال، إذ إن كل ملك ـ حتى هذا العهد ـ قَصد أُسرة بني العباس ودار السلام ببغداد كانت عاقبته وخيمة، ومهما قصد ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين، فإن بناء هذا البيت محكم للغاية، وسيبقى إلى يوم القيامة.

وفي الأيام السالفة قصد يعقوب بن الليث الصفار الخليفة وتوجه بجيش لجب إلى بغداد، فلم يبلغ مأربه إذ مات بعلَّة الزحار، والأمر كذلك مع أخيه عمرو.. وكذلك قصد السلطان محمد السلجوقي بغداد، فعاد منهزماً وهلك في الطريق..

وجاء محمد خوارزم شاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الأسرة، فابتُليَ في روابي أسد آباد بالثلج والعواصف بسبب غضب الله

---

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ، م٢ : ١/ ٢٧٩.

عليه، وهلك أكثر جنده، وعاد خائباً خاسراً، ثم لاقى ما لاقى من جدّك جنكيز خان في جزيرة آبسكون، فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر»[1].

ولذلك كان هولاكو متردّداً في أمر مهاجمة بغداد، غير أنه استدعى نصير الطوسي، واستشاره بالأمر، فقال له الطوسي: «لن تقع أية واقعة من هذه الأحداث» فقال هولاكو: «إذن ماذا يكون. . .» قال الطوسي: «إن هولاكو خان سيحلّ محلّ الخليفة»[2]!!.

ثم أحضر هولاكو المنجِّم حسام الدين ليتباحث مع الخواجة الطوسي، الذي فند مزاعمه، وقال لحسام الدين: «لقد استشهد جمع كثير من الصحابة باتفاق آراء الجمهور وأهل الإسلام ولم يحدث فساد قط، ولو قيل: إن للعباسيين مكرمة خاصة بهم فإن طاهراً جاء من خراسان بأمر المأمون، وقتل أخاه محمد الأمين، وقتل المتوكل ابنه بالاتفاق مع الأمراء كذلك قتل الأمراء، والغلمان المنتصر والمعتز، وقُتل عدد من الخلفاء على يد جملة أشخاص، فلم تختلّ الأمور»[3].

---

(١) حسن الأمين، الغزو المغولي، ص١٢٩.
(٢) رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، م٢: ١/ ٢٨٠.
(٣) المصدر السابق نفسه.

وقال الهمذاني معلقاً على تشجيع الطوسي لهولاكو على غزو بغداد بقوله[1]:

فـأضـاء قلـب الملـكِ مـن قـول العـالـم
كـأنّـه زهـرةُ العلـل فـي الـربيـع البـاكـر

بل أكد الذهبي على أن مؤامرة احتلال بغداد «دبرها الطوسي من خلال رسل هولاكو وقراصنته إلى بغداد إلى أناس، والخليفة لا يصل إليه خبر، ولو درى لما أغنى ولا درا»[2].

أما محمد صادق الحسيني الذي كان متحزّباً ومدافعاً عن الطوسي فإنه قال: «. . . ولكن الأمر الذي يستحق الاعتبار أكثر من كل شيء، هو أن نقرأ خبر هذه الحادثة بقلم أكبر بحاثة رافق الحملة التترية لهولاكو خان إلى بغداد وكان لوجوده الأثر العميق في سير الحالة العمومية إذ ذاك، ألا وهو العلامة الخواجة نصير الدين الطوسي»[3].

وكان الطوسـي ذا تأثير كبيـر على هولاكو، الذي كان يسـتمع

---

(١) رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، مصدر سابق.
(٢) الذهبي، دول الإسلام: ٢/ ١٥٩، المراد من حملة الرسائل والفرمانات التي أرسلها هولاكو إلى بعض مَن كاتبوه سراً.
(٣) المرشد، ص٢٢.

ويصغي ويؤمن بما يشير عليه به.

وقال الكتبي: «وكان يعمل الوزارة لهولاكو، واحتوى على عقله، حتى إنه لا يركب ولا يسافر إلا في وقت يأمره به. . .»[1].

ورغم الجريمة النكراء التي ارتكبها الطوسي بحق الإسلام وحاضرته بغداد، إلا أنه يبرر الغزو المغولي بأنه كان بسبب الموقف السلبي الذي وقفه الخليفة من المغول، عندما ادعى كذباً وبهتاناً ما نصه: «ولما عزم هولاكو خان على أن يلج بلاد الملاحدة الباطنية سَيَّر من قبله مندوباً إلى الخليفة، ليطلب منه النجدة، حتى يستأصل شأفتهم، ويمحو سطوتهم، فبلَّغ الرسول الخليفة فَحْوَى السفارة بقوله يقول هولاكو: إننا بعاداتنا البدوية، وأسسنا القومية، نستنجد بموالينا على أعدائنا، وبالنظر إلى الحب والولاء القائم بيني وبينك، أرجو معونتنا بخيلك، وإمدادنا برَجلك، حتى ندرأ شرخ هذه الفئة الباغية، التي أريقت بيدها الدماء، وأزهقت بغدرها أرواح الأبرياء، فاختلى الخليفة بحاشيته، وأتمر مع أصحابه، فانصاع الخليفة لرأي الجلساء، وتوانى في إمداد السلطان، ورجع الرسول بخفي حنين.

ولما أن فرغ هولاكو من احتلال بلاد الملاحدة عاتب الخليفة عتاباً

---

(١) الكتبي، فوات الوفيات: ٣/ ٢٥٠.

مرّاً وأنذره إنذاراً أليماً . . »[١].

إذا ما علمنا أن هذه أسطورة لا أساس لها من الصحة، وأراد بذلك أن يقدم مبررات للغزو المغولي على بغداد، ويلقي بأسباب احتلال بغداد على الخليفة من خلال قوله: «فتوانى الخليفة في إنجاز ما أراد الملك، فتهيجت من أجله سورة غضب هولاكو، وعقد النية على احتلال بغداد . . لأن السيل قد بلغ الزبى، وحان الوقت الذي لا ينفع فيه الندم[٢]».

وعلى أثـر ما أشـار به الطوسي على هولاكو قرر الأخيـر التوجه بجيشه الكبير نحو بغداد، وكان يرافقه في هذا الجيش، الأمراء: كوكا ألكا، وأرقتو نويان، وأرغون آقا، والخواجة نصير الطوسي، وعطا ملك الجويني[٣].

وفي أوائل محرم سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧ ـ ١٢٥٨م سار هولاكو خان بالجيـوش في القلب الذي يسـميه المغول (تـول) عن طريق كرمنشاه وحلوان، وكان في ركابه كبار الأمراء والخواجة نصير الدين الطوسي،

---

(١) رسالة الطوسي، ص٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص٢٤.

(٣) د. خصباك، المرجع السابق، ص٥٠.

مع سائر الأمراء والملوك وكتاب بلاد إيران[1]. وقد أشار هؤلاء على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وحسنوا له قتل الخليفة[2].

ثم انتخب هولاكو النصير الطوسي ليكون في خدمته كالوزير المشير[3]. وقد أرسل الخليفة العباسي المستعصم برسالة تحذيرية إلى هولاكو، ثم أرسل إليه برسل، إلا أنه لم يأبه به، وواصل مسيره باتجاه بغداد.. فلما كان يوم الإثنين ١١ محرم سنة ٦٥٦هـ هاجموا بغداد من جهة البرج المجاور لمقبرة الشيخ عبد القادر الكيلاني، حيث صعدوا عليه، وملكوه، وامتلأ بين السورَيْن منهم، ولم يزالوا في تدبير أمرهم وإحكامه إلى يوم الإثنين ١٨ محرم، حيث دبوا في بغداد، وأوغلوا فيها.

وفي يوم الأحد ٣ صفر أخرجوا إليهم الخليفة المستعصم بعد أن وثقوه بالأيمان التي ظنها صادقة، فنزل على حكمهم في خيمة عندهم[4]. حيث أمر بقتله.

وذكر ابن كثير: «أن من الناس من يقول: إن الطوسي هو الذي

---

(١) الهمذاني، جامع التواريخ، م٢: ١/ ٢٨١ـ ٢٨٢.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠١.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) ابن الكازروني، مختصر التواريخ، تحقيق د. مصطفى جواد ـ بغداد، ١٩٦٩م، ص٢٧٢ـ٢٧٣.

أشار على هولاكو بقتل الخليفة»[1]. . حيث إنّ هولاكو تهيب قتله في بادئ الأمر، ولكن الوزير هوّن عليه ذلك فقتلوه رفساً.

وفي رواية أنّ الذي أشار على هولاكو بقتل الخليفة الوزير ابن العلقمي والمولى نصير الدين الطوسي[2]، فيروى أن أحد المنجمين قال لهولاكو: «إذا قتل الخليفة فإن العالم يصير أسود مظلماً، وتظهر علامات القيامة. . .»[3]. وفي هذه المرة أيضاً ينفي نصير الدين الطوسي هذا الادّعاء، وأيد رأيه ببراهين عملية، تثبت أن عدة خلفاء من بني العباس قُتلوا، ولم يحدث خلل يذكر[4].

وكان الذي تولى الاهتمام بابن العلقمي عند هولاكو لما احتل بغداد هو نصير الدين الطوسي[5]. . حيث إنّ هولاكو أعجب بابن العلقمي، والأرجح أن شفاعة نصير الدين الطوسي له كانت أهم سبب في نجاته، على حد زعم ابن الطقطقي[6]. وقد أنشد الطوسي شعراً

---

(١) ابن كثير، مصدر سابق: ١٣/ ٢٦٧-٢٦٨.

(٢) المصدر السابق: ١٣/ ٢٠١.

(٣) الششتري، مجالس المؤمنين، ص٤٠٠.

(٤) الجوزجاني، طبقات ناصري، ص٤٣٠.

(٥) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية - بيروت، ١٩٦٦م، ص٣٣٨.

(٦) المصدر السابق نفسه.

يؤرخ فيه احتلال هولاكو لبغداد قال فيه[1] :

سال هجرت ششصد وبنجاه وشش
روز يك شنبه جهارم از صفر
شد خليقة ينست هولاكو
دولت عباسيان آمد بسر

ومعناهما: في تمام ستة وخمسين وستمئة للهجرة، وفي يوم الأحد الرابع من صفر، انعدم ذكر الخليفة، وجاء اسم هولاكو، ودالت دولة العباسيين.

وكان الطوسي يقيم على بوابة الحلبة أماناً للناس، فشرع الأهالي يخرجون من المدينة، ثم يستلمهم الجند المغولي فيقتلونهم.. ثم أمر هولاكو بقتل جند بغداد جميعاً، وقضوا على كل شخص وجدوه حياً من العباسيين، اللهم إلا أفراداً قلائل لم يأبهوا بهم[2].

---

(١) ابن الكازروني، مصدر سابق، ص٢٧٢ ـ ٢٧٣؛ الألوسي، الأستاذ سالم، هامش ٢٧٣؛ ابن الكازروني، مختصر التاريخ (وقال الأستاذ الألوسي: نقل العلاّمة المحقق البيتين مصحفين لعدم معرفته بالفارسية، فعرضناهما على الأستاذ جعفر الخليل، الذي تفضّل مشكوراً بقراءتهما وضبطهما بالشكل الذي يجده القارئ).

(٢) رشيد الهمذاني، مصدر سابق، م٢: ١/ ٢٨٨ـ٢٨٩، ٢٩٤.

وفي يوم ٩ ربيع الأول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م أعاد هولاكو رُسل حلب الذين كانوا قد قدموا إلى بغداد، وحملهم رسالة كتبها بالعربية نصير الطوسي كان نصها: «أما بعد، فقد نزلنا بغداد سنة ست وخمسين وستمئة فساء صباح المنذرين، فدعونا مالكها، فأبى، فحق عليه القول، فأخذناه أخذاً وبيلاً، وقد دعوناك إلى طاعتنا، فإن أتيت فروح وريحان، وإن أبيت فخزي وخسران.. فلا تكن كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه، فتكون من الأخسرين أعمالاً، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً، فما ذلك على الله بعزيز، والسلام على من اتبع الهدى»[1].

بهذا الأسلوب، وبهذه الروح، وبهذا المنطق، يخاطب الطوسي العرب المسلمين في الشام نيابة عن هولاكو الوثني.. وقد كتب الطوسي رسالة يؤرخ فيها احتلال المغول لبغداد، وهي الرسالة التي استخرجها (رسول التخشبي) أحد كتّاب إيران، وقد نشرتها (مجلة) التقدم الفارسية التي تطبع في طهران في العدد السابع، وجاء في نص الرسالة ما يلي:

وقال العلامة نصير الدين الطوسي: «ولما عزم (هولاكو خان) على أن يلج بلاد الملاحدة (الباطنية) سَيَّر من قبله مندوباً إلى الخليفة،

---

(١) رشيد الهمذاني، مصدر سابق: ١/ ٢٩٦ـ٢٩٧.

ليطلب منه النجدة، حتى يستأصل بذلك شأفتهم، ويمحو سطوتهم، فبلَّغ الرسول الخليفة فَحوى السِّفارة بقوله يقول هولاكو: «إننا بعاداتنا البدوية، وأسسنا القومية، نستنجد بموالينا على أعدائنا، وبالنظر إلى الحب والولاء القائم بيني وبينك، أرجو معونتنا بخيلك، وإمدادنا برَجِلك، حتى ندرأ شر هذه الفئة الباغية التي أريقت بكيدها الدماء، وأزهقت بغدرها أرواح الأبرياء». . فاختلى الخليفة بحاشيته، وأتمر مع أصحابه، فأجابه الجمع من الجنود والأمراء بأن (هولاكو) يريد بهذه الحيلة إخلاء بغداد من العدد والعدة، لتصبح في وجهه مفتحة الأبواب، خالية من الخيل والركاب، فيستولي آنئذٍ على المدينة بلا توجس خوفٍ وارتياب، ونمسي على ما فعلنا نادمين. . فانصاع الخليفةُ لرأي الجلساء، وتوانى في إمداد هولاكو ورجع الرسول إلى سيده بخفي حنين.

ولما أن فرغ هولاكو من احتلال بلاد الملاحدة عاتب الخليفة عتاباً مُرّاً، وأنذره إنذاراً أليماً، فارتأى الخليفة أن يستشير وزيره ـ ابن العلقمي ـ فأشار عليه هذا أن يحمل ما في دار الخلافة من فاخر الأثاث، وزخرف الرياش، على البغال المسرجة، والخيل الملجمة ويقدمها هدية لهولاكو، وينجو بهذه الواسطة مما يوشك أن يحدث في ملكه من التدمير والهوان، فقبل الخليفة ما أشار الوزير إليه، وأمر بتسجيل ما يلزم انتقاؤه من الأشياء، وعيّن لإيصالها نفراً من أركان دولته، لعرض المعذرة عند

تقديم الهدية، فاجتمع أحد الأمراء المدعو (الدوات دار الصغير) مع عدة من صحبه، وقال لهم: إن هذه مكيدة أراد بها الوزير قتل أعواننا ونهب أموالنا، فإذا جيء بالأموال إلى ظاهر البلد فننقض عليها برمّتنا، ونستنقذها؛ لتكون ذخراً ليوم شدتنا. . فنمي الخبر إلى الخليفة، واضطر إلى إبدال الكثير بالقليل، والوافر بالنزر، فاغتاظ هولاكو لذلك، وأرسل إليه أن يحضر بنفسه أو أن يبعث إليه أحد الذوات الثلاثة أي الوزير أو الكاتب أو سليمان شاه. . فتوانى الخليفة في إنجاز ما أراده الملك أيضاً، فتهيجت من أجله سَوْرة غضب هولاكو، وعقد النية على احتلال بغداد، فأرسل الخليفة الأزبكي غير مرة، وابن الجوزي بن محيي الدين مرة، فارتدا خائبيْن؛ لأن السيل قد بلغ الزبى، وحان الوقت الذي لا ينفع فيه الندم.

ففي شهر شوال من سنة ٦٥٥هـ نهض هولاكو من همذان مولياً وجهه شطر قاعدة الخلافة العباسية على أن الأمير (صوغنجاق) والسردار (تايجونوئين) كانا قد ذهبا مع مقدمة الجيش الأيمن على الميمنة مما يلي أربل عن طريق جبال (شهرزور)، كما أن القائد (دقوق) وزميليه (كبدبوقائين) و (وانكتانوئين) كانوا على الجناح الأيسر من الميسرة التي زحفت إلى تكريت وبيات، وكان فيلق القلب من الجند السلطاني تحت إمرته الشخصية، يسير من كرمانشاه وحلوان إلى بغداد. . هذا وقد سار

(الدوات دار) من بغداد بجيش الخليفة وأتى إلى بعقوبة، فخيّم بجوارها.

أما هولاكو فكان قد أوعز إلى أحد قواده المدعو (تايجورا) أن يعبر دجلة ويدخل بغداد من جانبها الغربي، وقد تخلّى هو عن رحله وسرادقه عندما وصل حلوان، وخرج منها بتجريده عن جيشه.

وأول حادثة حدثت هي أن طلائع الجيش الملكي أسرت طليعة من جند الخلافة، ولما مثلوا بين يدي هولاكو أقسموا الأيمان المغلظة على أن يخلصوا الخدمة من يومهم للملك، ويؤدوا له ما يجب عليهم من الصدق والأمانة، وكان في جملتهم أمير من بقايا الملوك الخوارزمشاهية، فأرسل هذا كتاباً من قِبَلِه إلى المعسكر العباسي مخاطباً به (قراسنقور) أحد أمراء جيش الخلافة بالعبارة التالية: «إنني وإياكم من جنسية واحدة، أديت الطاعة، واتصلت بالخدمة، فصرت من المكرمين، فإذا أردتم أن تبروا أنفسكم، وتشفقوا على أرواحكم؛ فاعتصموا بحبل الطاعة، وتمسكوا بذيل العبودية، لأني لكم من الناصحين».

وبعدما قرأ (قراسنقور) الكتاب، أجاب الأمير المذكور بما يلي: «متى صارت لهولاكو تلك المكانة التي يتمكن بواسطتها بلوغ هذه الغايات، ولعمري إن هذه الدولة (العباسية) قد شاهدت كثيراً من أمثاله وأقرانه.. هذا وإن مجيئه بهذه الصورة إلى بلاد الخليفة، وتدميرها بهذه

الصفة، لدليل على أنه يريد في الأرض علواً وفساداً، وإن أراد غفران ذنوبه، وقبول أعذاره، فليـرجع إلى همذان، حتى أتشفع له بواسـطة (الدوات دار) لدى الخليفـة، ويعفو له عما سـلف». . وبعدما وقـف هولاكو على فحوى رسالة (قراسنقور) ضحك ضحكة المتهكم، وقال: «نعم إن الأمر بيد الله، وإنه فعّال لما يشاء».

وبعدما عبر القائـدان (صوغنجاق) و (تـايجونوئين) دجلة، ظن البغداديون أن هذه الجيوش والعساكر ما قطعت النهر إلا تحت قيادة هولاكو خان الخاصة، ونمى الخبر إلى (الدوات دار) فقفل راجعاً من بعقوبة إلى بغداد، وعبر دجلة؛ فالتقى (بصوغنجاق)، الذي كان في مقدمة الجيش المغولي، ووقعت بينهما معركة انكسرت فيها فيها عساكر (صوغنجاق)، والتجأ الأخير إلى الفرار، ولكن الذي حصل لعسكر (الدوات دار) عند اشتباكه بالحرب مع (تايجونوئين) العائد الثاني، دعى لضياع النتيجة، وتضايقت عليه الأحوال، فآب (الدوات دار) راجعاً بجمعه المتفرق إلى بغداد.

أما هولاكو فامتطى جواده، وعبر (ديالي) مع جمع من عسكره، إلى أن بلغ ظاهر بغداد في منتصف شهر محرم سنة ستمئة وست وخمسين، وأرسل (بوقاتيمور) مع جيش ليحيط بغداد من جانبها الغربي، وأمر أن يقيم الجند حائطاً يحتضن المدينـة من كل الجهات، ثم نصبت عليـه

المجانيق، وهيئت المؤن والمعدات اللازمة للحرب والقتال.

ولما أحسَّ الخليفة بذلك اجتمع بأصحابه ليتشاوروا في الخطب، فقال بعضهم: إذا أردنا أن نقدم لهم الهدايا الفاخرة، ونفتدي المدينة بالدرهم والدينـار، فعسى أن يحملـوا فعلتنـا هذه دليلاً على الخوف والهوان، والأصلح إيفاد الوزير و(صاحب الديوان) مع (ابن الدربوس) بقليل من التحف والرياش، فاستحسن الجميع قوله.

فلما حضر صاحب الديوان وزميلاه إلى هولاكو قال: لماذا لم يحضر عندنا (سليمان شاه) و(الدوات دار)، فأجيب بأن هولاكو كان قد كتب للخليفة أن يبعث واحداً من هؤلاء الثلاثة، فأرسل الخليفة الوزير الذي هو أكبرهم. . فقال هولاكو: نعم، ولكن أردت ذلك في همذان، وهاأنذا في بغداد.

هذا وبعد أخذ ورد، ظهرت بوادر القتال ظهوراً تدريجياً، وابتدأت العساكر المغولية بالحرب في ٢٢ من شهر محرم، وحمل هولاكو بنفسه على بغداد من جانبها الشرقي تجاه برج العجم، وحاربت عساكر (كبه بوق) بالسهم والنشاب، وكان القائدان (بلغاي) و (سناي) يتقاتلان في الجانب الأيمن للمدينة، وأما (بوقاتيمور) فإنه انهال بجيشه على بغداد من الجانب الغربي في أرض كانت تعرف حينذاك بـ(روضة النقل).

أما (تايجونوئين) و(صوغنجاق) فقد احتوشا المدينة، وزحفا عليها مما يلي المارستان العضدي، ودام القتال الشديد لمدة ستة أيام بلياليها، أمر هولاكو أن ترسل ستة رسائل بواسطة النشاب لجماعة السادة والعلماء والأركان والمشايخ وغيرهم، ليفهموهم بأن الجيوش المغولية لا تتحرش بهم، إن ألقوا سلاحهم، وكانوا في حياد.

وما بزغت شمس يوم الثامن والعشرين من شهر محرم إلا وتمكن العسكر المغولي من الاستيلاء على برج العجم. . وقبيل صلاة ظهر ذلك اليوم تمكن المغول من بغداد، ووقعت المدينة في قبضة التتر. . وكان قد أرسل هولاكو بوحدات من جيشه للحراسة على دجلة من أعلاها إلى أدناها، وللقبض على الذين يريدون الفرار، واتفق أن صادفوا ثلاث سفن تحمل أثاث (الدوات دار) وشيئاً كثيراً من أمواله وسلاحه، وغير واحد من رجاله وصحبه، من جملتهم نقيب العلويين، فأوقفوها من السير برشاشات النفط النارية، التي كانت تلقى عليهم من المجانيق، فهلك من فيها من الناس، حتى النقيب العلوي، وصودرت جميع ما فيها من الحمولات.

هذا وقد أمر هولاكو أهل بغداد على أن يشتركوا جميعهم بهدم السور الذي يحيط بالبلد. . وبعدما دخل هولاكو استأذنه الخليفةُ

للخروج من بغداد، لأنه تحقق من نفسه وجيشه الضعف الكامل، وأنه باء بالفشل المبين.

والخلاصة إن الخليفة قابل الملك في (باب كلواذ) بجمع غفير من السادة والأئمة والمشايخ والأركان، وهذه هي المقابلة التي كانت تعد آخر يوم من أيام الخلافة العباسية.

ثم صدرت أوامر هولاكو في أن يبادر الجند بغزو المدينة، ونهب ما فيها من الأموال.

وفي يوم الأحد الموافق الرابع من شهر صفر سنة ٦٥٦ دخل هولاكو المدينة وولج القصر العباسي، ثم دخل الغرفة التي كانت معدة لجلوس الخليفة، عندما يريد القراءة والمطالعة، وكان الخليفة حاضراً هناك مع نفر غير قليل من العلماء والأشراف، فتقابل هولاكو معهم، وتكلّم بعد ذلك مع الخليفة، وقال له: أين الهدايا التي يجب تقديمها (للدركاه)؟.. فأحضرت له الهدايا، وقسّمها هولاكو بين رؤساء الجند وقادة الجيش، ووضع هولاكو طبقاً مملوءة بالذهب الإبريز أمام الخليفة، وقال له: تقدم وكُلْه لسدِّ جوعك.

فقال الخليفة: ليس هذا مما يتمكن الإنسان من أكله.

فقال هولاكو: إذن ما ضرك لو أنك كنت تقسمه على أعوانك

وجيشك، ليكون وسيلة لقوة أمرك وداعياً لنصرك . . ولِمَ لم تخلع هذه الحدايد التي غلفت بها هذه الأبواب، ليصنعوا منها سهاماً تمنع عبور أعدائك من (دجلة).

فأجاب الخليفة: كل ذلك كائن بتقدير الله.

فقال له هولاكو: نعم، وإن الذي سيجري عليك يكون بتقديره أيضاً.

ثم أمر هولاكو أن تدخل النساء اللواتي باشرهن الخليفة وولده بقصر دار الخلافة، وأذن بدخول الوصائف والخدم أيضاً، وأحصيت فكانت (٧٠٠ امرأة) و(١٣٠٠) وصيف وخادمة. . وبعد أسبوع أعلن الأمن العام، وجمعت الغنائم والأسلاب.

وفي اليوم الرابع عشر من صفر خرج هولاكو من المدينة، وأمر بإحضار الخليفة بظاهرها، فأُحضر مع ابنه الأوسط، وخمس أو ست من خدمه الخصوصيين، فوقعت الواقعة، وصار ما صار، وانتهت آخر أيام عمر الخليفة العباسي في ذلك اليوم. . وفي اليوم التالي قُتل نجل الخليفة الأكبر، وشتت بعد ذلك شمل الحرم والنساء، فتفرقوا أيادي سبأ.

ثم أمر هولاكو بعد ذلك بدفن أجساد البشر والحيوانات التي كانت مطروحة في الطرقات، بعدما نصّب الوزير ـ ابن العلقمي ـ للوزارة،

وصاحب الديوان لديوانه، وأعطى إمارة الجيش لابن الدربوس، وسلَّم إدارة الشرطة في بغداد لرجل آخر يدعى (استوبها) وبعد ذلك رحل من بغداد إلى حيث يريد.

وكان هو لاكو قبل رحلته من بغداد قد سيَّر (بوقاتيمور) بعد ذلك نحو مدينة (تستر الأحواز) بقصد الاستيلاء عليها، ورافقه شرف الدين ابن الجوزي إلى هناك.. أما الكوفة والبصرة فقد احتلتا أيضاً من قبل المغول[1].

وبعد كل الدمار الذي لحق بحاضرة الإسلام والعرب، نقل الطوسي كتبَ الأوقاف التي كانت ببغداد إلى مدينة مراغة[2]. وقال الصفدي معلقاً على دور الطوسي في بناء خزانة مكتبة مراغة بقوله: «وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمئة ألف مجلد»[3]. وكان ذلك في سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م. ويروى أنّ مجموع ما نقله الطوسي من خزائن بغداد إلى مراغة حتى سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م قد بلغ «أربعمئة ألف مجلد»[4].

---

(١) محمد صادق الحسيني، مجلة (المرشد)، م٤، ص٢٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٢١٥.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٢/ ١٧٩.

(٤) الأستاذ أسامة النقشبندي، فنون الكتاب، ضمن كتاب (حضارة العراق) - بغداد، ١٩٨٥م: ١١/ ٢٢٣. =

وجُمعتْ في مرصد مراغة الذي بناه المغول بناءً على أمرٍ صادر من منكوقا آن، حيث اقتضى رأيه أن يشيد مرصد، وأمر أن يقوم بهذه المهمة نصير الطوسي، وقد أنشئ المرصد الإيلخاني بعد مضي سبع سنوات من جلوس هولاكو خان على العرش، وذلك بالاعتماد على الطوسي، ومشاركة الحكماء الأربعة، مؤيد الدين العرضي، وفخر الدين المراغي، وفخر الدين الإخلاطي، ونجم الدين دنران القزويني[1]، حيث رتب في هذا المرصد الفلاسفة والمتكلمين والأطباء وغيرهم[2].

وقال شمس الدين ابن العرضي مُبيناً أثر الطوسي على هولاكو فيما يتعلق بمرصد مراغة بقوله: «أخذ من هولاكو بسبب عمارة هذا المرصد ما لا يحصيه إلا الله، وأقل ما كان يأخذ بعد فراغ الرصد، لأجل الآلات وإصلاحها عشرون ألف دينار، خارجاً عن الجوامك والرواتب التي للحكماء والقومة...»[3].

وبعد أن احتلت بغداد، غادر الطوسي بغداد مع قادة المغول عائداً إلى إيران، بعد سرقة كتبها وما موجود في خزائنها، ثم عاد إليها قادماً

---

(١) رشيد الهمذاني، مصدر سابق، ص٣٠٣ ـ ٣٠٤.
(٢) ابن كثير، مصدر سابق: ١٣/ ٢٦٨.
(٣) الصفدي: ١٢/ ١٨٢.

من مراغة، ومعه جماعة كبيرة من أصحابه وتلامذته، فأقام بها عدة أشهر، ومات بها في شهر ذي الحجة لسنة ٦٧٢هـ، وقد نيف على الثمانين أو قاربها وشيعه صاحب الديوان والكبار[١].

لقد أعقب الطوسي عدة أبناء؛ منهم صدر الدين علي، الذي تولى بعد أبيه غالب مناصبه، فلما مات، ولي مناصبه أخوه الأصيل، وقدم الشام مع غازان، مرافقاً إياه في غزوته للشام، كما فعل أبوه في مرافقته للمغول في غزو (بغداد)، وتولى في تلك الأيام أوقاف دمشق، وأخذ منها جملة ـ أي سرق منها ـ ورجع مع غازان، وولي نيابة بغداد مدة «فأساء السيرة، فعُزل، وصودر، وأُهين، فمات غير حميد».

«وأما أخوهما الفخر أحمد فقتله غازان لكونه أكل أوقاف الروم، وظلم الناس»[٢].

آراء في الطوسي:

تتباين مواقف المفكرين في تقييم الموقف السياسي الذي وقفه الطوسي من الغزو المغولي. . وسوف نطلع القارئ على جانبٍ من بعض تلك المواقف المتباينة، لنبيّن مدى حقيقة كثير من الكتابات التاريخية

---

(١) الصفدي، مصدر سابق: ١٢/ ١٨٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

التي توجب إعادة النظر فيها، وضرورة كتابتها من قِبَل أبناء الأمة الذين آمنوا بقدرها، وبدورها في صنع هذا التاريخ.. وأن هذه الكتابات تكشف لنا عن كثير من المتناقضات، التي لا سند لها، ولا أصل لها من قريب أو بعيد، مع حقيقة الحدث أو الواقعة التاريخية..

وهنا نلاحظ أن أبرز الذين دافعوا عن الطوسي من المؤرخين القدامى هو مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله الهمذاني، الذي أشاد به في مواقع كثيرة، نقتبس منها ما يلي: «... مولانا الأعظم السعيد أستاذ البشر الخواجة نصير الدين الطوسي»[1]. وقال عنه في موضع آخر: «وفي ذلك الوقت كان مولانا السعيد الخواجة نصير الدين الطوسي الذي كان أكمل وأعقل عالم...»[2].

وقال ابن حجر عن والد رشيد الدين الهمذاني ما نصه: «كان أبوه عطاراً يهودياً فأسلم هو، واتصل بغازان، فخدمه، وتقدم عنده بالطب، إلى أن استوزره»[3].

---

(١) جامع التواريخ، م٢: ١/ ٣٠٣.
(٢) المصدر السابق، ص٢٤٩.
(٣) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ٣/ ٢٣٢ ـ حيدر آباد، ١٢١٣هـ.

وأكد العيني: أن أصله يهودي من يهود همذان، ثم أسلم وهو شاب ابن ثلاثين سنة[١].

وأكد الدكتور الصياد أن ذلك الوقت كان التعصب فيه على أشده ضد المسلمين، وإيثار الطوائف الأخرى، وبخاصة اليهود الذين ارتفع شأنهم إلى حد كبير في عهد الملك أرغون، وعلى يد وزيره سعد الدولة البويهي، الذي كان شديد التعصب لكل ما هو يهودي[٢].

ومن المسلَّم به أن رشيد الدين الهمذاني كان يعرف اللغة العبرية معرفة تامة، وكان يتخيّر أعوانه من بين صفوف اليهود، الذين كانوا يكثرون في هذا العصر في البلاط المغولي. وكان شائعاً في إيران اتهام رشيد الدين باليهودية، وعلى إثر مقتله دفن في تبريز، وفي مقابر اليهود[٣].

وقد تألم رشيد الدين الهمذاني على وفاة هولاكو بقوله: «وقعت الطامة الكبرى في ليلة الأحد التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، وكان عمره ثماني وأربعين سنة شمسية تامة، إذ وصل من مرحلة

---

(١) د. الصياد، المرجع السابق، ص٩٨.
(٢) المرجع السابق، ص٩٩.
(٣) المرجع السابق، ص٩٩ ـ ١٠١، ٣٤١.

الفناء إلى مستقر البقاء على ساحل جغاتو . . . »[1].

إذن هذا الهمذاني كان يهودياً في أصله، ويكفيه خزياً تعصبه لها، فلا غرابة في امتداحه للطوسي؟! إذا ما علمنا بأن رشيد الدين الهمذاني كان يتغنى دائماً بأمجاد أسرة جنكيز خان، ويعتبر المؤرخ الرسمي لهولاكو وأبنائه[2].

وممن أشاد بالطوسي أيضا الميرزا محمد باقر الخونساري الأعجمي، والذي قال مفتخراً باحتلال المغول لبغداد، ومعجباً بالطوسي الذي كان سببا في ذلك، فيقول عن الطوسي وهولاكو: «ومن جملة أمره المشهور، المعروف المنقول، حكاية استيزاره للسلطان المحتشم في محروسة إيران هولاكو خان بن تولي خان بن جنكيز خان، من عظماء سلاطين التتارية . . ومجيئه في موكب السلطان المؤيد، مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد، لإرشاد العباد، وإصلاح البلاد، وقطع دابر سلسلة البغي والفساد، وإخماد ثائرة الجَور والإلباس، بإبادة دائرة ملك بني العباس، وإيقاع القتل العام في أتباع أولئك الطغاة، إلى أن أسال من دمائهم كأمثلة الأنهار، فانهار بها في ماء دجلة، ومنها إلى

(١) رشيد الدين الهمذاني، مصدر سابق، ص٣٤.
(٢) الدكتور السيد الباز العريني، المغول، ص٢٢٠.

نار جهنم دار البوار ومحل الأشقياء والأشرار»[1].

وهكذا تلاحق وترادف هذا الأعجمي المتعصب بصاحبه الأول، حيث أعمى الحقد بصيرتهم، وأعمى الباطل قلوبهم، وإن هذا الجاهل قاده تعصبه إلى الافتخار بما قام به سيده الطوسي، بالتعاون مع هولاكو من احتلال بغداد، وسفك دماء الأبرياء فيها.. إذا ما علمنا أن (روضات الجنات) للخونساري، مليء بمدح السفاحين والخونة والشماتة بما وقع للإسلام، والتشفي من ضحايا تلك النكبة من خاصة وعامة، والسرور بما جرى من الذبح العام للمسلمين والمسلمات، حتى الأطفال والشيوخ، بما يخجل أن يظهر سروره به أعدى الأعداء وأقسى الوحوش قلباً»[2].

وتناغما مع هذين الشخصين الأعجميين، فقد انبرى محسن الأمين مدافعاً عن الطوسي من خلال قوله: «وإن الدولة في بغداد بلغت من التفسخ والانحلال والفتن ما لم تستطع معه أن تقف بوجه هذا السيل المغولي الجارف»[3]. وأضاف عن الطوسي قائلاً: «الحكيم الفيلسوف...»[4].

---

(١) ميرزا محمد باقر الخونساري، روضات أرجنات، ص٥٧٨.

(٢) االسيد محب الدين الخطيب، الخطوط العريضة ـ الرياض، ١٣٨٠هـ، ص٣٣.

(٣) محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٤٦/ ١١٠.

(٤) المصدر السابق: ٤٦/ ٤.

وبرر خيانته بقوله: «أصبح الطوسي في قبضة هولاكو، ولم يعد يملك لنفسه الخيار في صحبته، فعزم منذ الساعة الأولى أن يشغل هذا الموقف لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من التراث الإسلامي المهدد بالزوال، وأن يحول دون اكتمال الكارثة النازلة، والبلاء المنصبّ، وقد استطاع بحنكته أن ينفذ خطته بحزم وتضحية وإصرار. . ؟!»[1].

ويقول: «ويبدو أن همّ الطوسي انصرف أول ما انصرف إلى إنقاذ حياة أكبر عدد من العلماء، وحفظ أعظم عدد من الكتب. . »[2].

ثم جاء ابنه حسن الأمين الذي كان حقاً حافظاً لسر أبيه عندما دافع عن الطوسي قائلاً: «كان الطوسي ذا فكر منظم يعرف كيف يخطط ويدبر، وهو في ذلك آية من الآيات. . . » وأضاف قائلاً: «كان الطوسي قد مات قرير العين، وهو يرى طلائع الظفر مقتحمة الدنيا بموكبها الرائع وبشائر النصر هازجة بأرفع صوت وأعلى نبرة. . مات الطوسي مودعاً الأمر إلى تلميذه وأقرب المقربين إليه، ليكون رسوله إلى العالم العربي والإسلامي.

هكذا استطاع نصير الدين الطوسي أن يهزم بالعقل والعلم الدولة الطاغية الباغية. . . »، يعني بذلك الخلافة العباسية!؟. . واختتم كلامه

---

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، مصدر سابق: ٤٦/ ٩.

(٢) المصدر السابق: ٤٦/ ١٠.

عن الطوسي بقصيدة في مدحه من إنشاء نظام الدين الأصفهاني[1].

وممن أشاد بالطوسي الدكتور علي أكبر فياض في كتابه «محاضرات عن الأدب الفارسي والمدنية الإسلامية» عندما قال: «. . . قدر لهذا الرجل العظيم أن يقوم بإنقاذ التراث الإسلامي من أيدي المغول. . .»[2].

وقال الحلي عن الطوسي: «وكان هذا الشيخ أفضل أهل زمانه في العلوم العقلية والنقلية». . وقال عنه أيضاً: «هو أستاذ البشر والعقل الحادي عشر»[3].

وقال المستشرق بروكلمان: «هو أشهر علماء القرن السابع وأشهر مؤلفيه إطلاقاً»[4].

وتحت عنوان: (نصير الدين الخواجة الطوسي يكلم الناس في المهد صبياً) قال يوسف كركوش معلقاً على ما جاء في كتاب (فقهاء الفيحاء) لهادي كمال الدين ما نصه في (ص٨٤) والذي طبع بمساعدة وزارة المعارف سنة ١٩٦٢م: «إن ابن إدريس الحلي يروي عن خاله

---

(١) محسن الأمين، الغزو المغولي ـ بيروت، ١٩٧٦م، ص١٥٤ ـ ١٦٠.
(٢) المصدر السابق: ٤٦/ ٩.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق: ٤٦/ ٤.

الفيلسوف المحقق محمد بن محمد الجهرورردي. . وهذا الفيلسوف هو الملقب بنصير الدين الطوسي.. ولد بطوس سنة ٥٩٧هـ»، وعلّق السيد يوسف كركوش على ذلك بقوله: «إن نصير الدين الطوسي هذا ليس بحال ابن إدريس بتاتاً، كما أنه لا يمكن أن يروي عنه ابن إدريس من الوجهة التاريخية، إذ إنّ وفاة ابن إدريس كانت سنة ٥٩٨هـ. وقد نص عليها صاحب هذا الكتاب وعلى هذا تكون وفاة ابن إدريس بعد ولادة الطوسي بسنة، فإذاً كيف يصح أن يروي ابن إدريس عمن ولد قبل وفاته بسنة؟. . وبمعنى أوضح إن ابن إدريس يروي عن نصير الدين الطوسي، وعمر الطوسي سنة إلا إذا كان يكلم الناس في المهد صبياً»[1].

وقال محمد صادق الحسيني معلقاً على رسالة الطوسي في احتلال هولاكو لبغداد بقوله: «. . . ولكن الأمر الذي يستحق الاعتبار أكثر من كل شيء، هو أن نقرأ هذه الحادثة بقلم أكبر بحّاثة رافق الحملة التترية الهولاكية خانية إلى بغداد. . وكان لوجوده الأثر العميق في سَيْر الحالة العمومية إذ ذاك، ألا وهو العلامة الخوجة نصير الدين الطوسي، الذي حضر الواقعة بنفسه، وكتب ما رآه وما سمعه بدون تحزب. . . »[2].

ومن الذين جرّموا الطوسي، عدد كبير من العلماء، نقتبس من

---

(١) يوسف كركوش، كشف الغطاء عن كتاب فقهاء الفيحاء، النجف الأشرف، مطبعة الآداب، ص٦.

(٢) مجلة المرشد، ص٢٢.

بينهم رأي العلامة شمس الدين بن قيّم الجوزية الذي قال عنه: «لما انتهت النوبة إلى نصير الشرك والكفر الملحد، وزير الملاحدة، النصير الطوسي، وزير هولاكو، شفى نفسه من أتباع الرسول ﷺ وأهل دينه، فعرضهم على السيف، حتى شفى إخوانه الملاحدة، واستشفى هو، فقتل الخليفة، والقضاة، والفقهاء، والمحدّثين، واستبقى الفلاسفة والمنجمين، والطبائعيين، والسحرة، ونقل أوقاف المدارس والمساجد والربط إليهم، وجعلهم خاصته وأولياءه، ونصَّ في كتبه على قدم العالم، وبطلان المعاد، وإنكار صفات الرب جل جلاله من علمه وقدرته وحيائه وسمعه وبصره، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه، وليس فوق العرش إلـهٌ يعبد البتة، اتخذ للملاحدة مدارس، ورام جعل إشارات إمام الملحدين مكان القرآن، فلم يقدر على ذلك فقال: هو قرآن الخواص، وذلك قرآن العوام، ورام تغيير الصلاة، وجعلها صلاتين، فلم يتم له الأمر، وتعلم السحر في آخر الأمر فكان ساحراً»[1].

وسمّاه ابن تيمية: (نصير المشركين)[2] حتى إنه وضع كتاباً للنصيرية.

---

(١) ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان: ٢/ ٢٦٧ ـ بيروت، ١٩٧٥م؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٥/ ٤٤٩ ـ ٣٤٠.

(٢) ابن قيم الجوزية، المصدر نفسه: ٢/ ١٤٦.

وقال الصفدي: «وأنا أعتقد أنه يعتقد معتقدهم، لأن هذا فيلسوف وأولئك يعتقدون إلـٰهيّة علي...»[1].

وقال عنه محب الدين الخطيب: «... فبعد أن كان النصير الطوسي ينظم الشعر في التزلف للخليفة العباسي المستعصم، ما لبث أن انقلب في سنة ٦٥٥هـ محرضاً عليه، ومتعجلاً نكبة الإسلام في بغداد.. وجاء في طليعة موكب السفاح هولاكو، وأشرف معه على إباحة الذبح العام في رقاب المسلمين والمسلمات أطفالاً وشيوخاً، ورضي بتغريق كتب العلم الإسلامي في دجلة، حتى بقيت مياهها تجري سوداء أياماً وليالٍ، من مداد الكتب المخطوطة التي ذهبت بها نفائس التراث الإسلامي، من تاريخ وأدب وشعر وحكمة فضلاً عن العلوم الشرعية ومصنفات أئمة المسلمين من الرعيل الأول التي كانت لا تزال موجودة بكثرة في ذلك الحين. . وقد تلفت مع ما تلف، اشترك مع النصير الطوسي في ارتكاب هذه الخيانة العظمى زميلان له، أحدهما الوزير محمد بن أحمد العلقمي، والآخر عبد الحميد بن أبي الحديد ـ اليد اليمنى لابن العلقمي...»[2].

---

(١) الصفدي: ١٢/ ١٨١.

(٢) السيد محب الدين الخطيب، الخطوط العريضة ـ الرياض، ١٣٨٠هـ، ص٣٢ـ٣٣.

وقال السيد محمد نجم عبد الله: «وأدى حقد الطوسي على الخلافة بصفتها موئل الإسلام في العالم يومذاك، وبسبب ما كان يختزنه في نفسه من حقد وتعصب مدمر ورثته الإسماعيلية عن الحركات السابقة المعادية للعروبة والإسلام، وورثه هو عنها»[1].

وقال براون عن الطوسي: «يجب ألا يغيب عن أذهاننا.. رغم كتابته في الموضوعات الأخلاقية والدينية، أنه قد أنكر جميل مضيفيه من الإسماعيلية، كما ساعد على الإيقاع بالخليفة في سبيل أن يرضي فاتحاً وثنياً سفاكاً للدماء مثل هولاكو...»[2].

* * *

---

(١) محمد نجم عبد الله، الموقف العربي من التحدي المغولي، أطروحة ماجستير غير منشورة ـ بغداد، ١٩٨٤م، ص٨٢.

(٢) براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، الترجمة العربية، ص٥٨٨.

المصادر والمراجع

- الأمين، حسن الأمين، الغزو المغولي - بيروت، ١٩٧٦م.

- الأمين، محسن الأمين، أعيان الشيعة، المجلد ٤٦ - بيروت، ١٩٥٩م.

- براون، أدوارد جرانفيل (ت١٩٢٦م)، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي - القاهرة، ١٣٧٣هـ.

- ابن تيمية، شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت٧٢٨هـ)، المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، وهو مختصر منهاج السنَّة، باختصار الذهبي، تحقيق محب الدين الخطيب.

- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبع دار الكتب المصرية - القاهرة، ١٣٢٩هـ.

ـ الجوزجاني، أبو عمر منهاج الدين بن سراج الدين (ت٦٩٨هـ)، طبقات ناصري، أُلِّف في الفترة ما بين ٦٥٧ ـ ٦٥٨هـ، نشر وليم نابوليس، ومولوي خادم حسين، ومولوي عبد الحي ـ كلكته، ١٨٦٤م.

ـ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج٣، حيدر آباد، ١٢١٣هـ.

ـ ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله (ت٦٥٥هـ)، شرح نهج البلاغة، ج١ ـ القاهرة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

ـ الحسيني، محمد صادق، مقالة عن رسالة نصير الدين الطوسي التي نشرها في مقدمة الرسالة، مجلة المرشد البغدادية، المجلد الرابع ـ بغداد، ١٩٢٩م.

ـ خصباك، الدكتور جعفر، العراق في عهد المغول الإيلخانيين، الطبعة الأولى ـ بغداد، ١٩٦٨م.

ـ الخطيب، السيد محب الدين، الخطوط العريضة ـ الرياض، ١٣٨٠هـ.

ـ ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ)، التاريخ الموسوم، العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ بيروت، ١٩٥٦م.

- الخونساري، ميرزا محمد باقر أصفهاني، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات - طهران، ١٣٠٦هـ.

- الدياربكري، الشيخ حسن بن محمد البكري (ت٩٩٠هـ)، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ج٢ - القاهرة، ١٢٨٣هـ.

- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام، مخطوطة مايكروفلم في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب، جامعة بغداد، تحت رقم (٤٣١)؛ دول الإسلام، حيدر آباد الدين، ١٣٣٧هـ.

- رنسمان ستيفنسن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني - بيروت، ١٩٦٧م.

- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، ج٥ - القاهرة، ١٣٢٤هـ.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة، ١٣٧١هـ.

- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن شهاب الدين

المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي (ت٦٦٥هـ)، الذيل على الروضتين، تحقيق عزت العطار الحسيني الدمشقي بعنوان: (تراجم رجال القرنين السادس والسابع)، الطبعة الأولى ـ القاهرة، ١٩٤٧م.

ـ الششتري، السيد نور الله بن شرف الدين الحسيني المرعشي المعروف بالششتري، مجالس المؤمنين (أُلِّف سنة ١٠١٠هـ ـ طهران، ١٢٩٩.

ـ الشيرازي، شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرزي، تاريخ وصاف الحضرة المعروف، بتجزية الأمصار، وتجزية الإعصار، ج١ ـ بومباي، ١٢٦٩هـ.

ـ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، نشر منه حتى الآن (١٢) جزءاً ما بين سنة ١٩٤٩م وسنة ١٩٧٩م، بتحقيق جماعة من العرب والمستشرقين، كان آخره الجزء الثاني عشر تحقيق رمضان عبد التواب. مطبعة الجمعية العلمية الملكية ـ عمان، ١٩٧٩م.

ـ الصياد، د. فؤاد عبد المعطي، مؤرخ المغول الكبير، رشيد الدين فضل الله الهمذاني ـ القاهرة، ١٣٨٦هـ، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية ـ بيروت، ١٩٨٠م.

ـ ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي، ولد في سنة ٦٦٠هـ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ـ بيروت، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

ـ الطوسي، نصير الدين الطوسي (ت٦٧٢هـ)، رسالة في استيلاء المغول على بغداد منشورة في مجلة المرشد البغدادية ٤٩، السنة الأولى ـبغداد، ١٩٢٩م.

ـ ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب الملطي المعروف بابن العبري (ت٦٨٥هـ)، تاريخ مختصر الدول، تحقيق الأب صالحاني ـبيروت، ١٨٩٠م.

ـ العريني، الدكتور السيد الباز العريني، المغول ـ بيروت، ١٩٨١م.

ـ ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت١٠٨٩)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ القاهرة، ١٣٥٠ ـ ١٣٥١هـ.

ـ الغساني، الملك الأشرف أبو العباس إسماعيل الغساني (ت٨١٢)، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم ـ بغداد، ١٩٧٥م.

ـ أبو الفداء، إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة

(ت٧٣٢هـ)، المختصر في أخبار البشر القسطنطينية، ١٢٨٦هـ.

ـ فهد، الدكتور بدري محمد، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ـ بغداد، ١٩٧٣م.

ـ ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق (ت٧٢٣هـ)، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق الدكتور مصطفى جواد، دمشق، (لا.ت)[1].

ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، تحقيق الدكتور مصطفى جواد مطبعة القوات ـ بغداد، ١٣٥١هـ.

ـ القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت٨٢١هـ)، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ج٢ ـ الكويت، ١٩٦٤م.

ـ ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت٧٥١هـ)، إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان، تحقيق محمد سعيد كيلاني، مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة، ١٩٦١م؛ زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، ج٣ ـ بيروت، ١٩٨٥م.

ـ ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي

(١) تعني لا تاريخ لنشر الكتاب.

(ت٦٩٧هـ)، مختصر التاريخ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد ـ بغداد، ١٩٦٩م.

ـ الكتبي، ابن شاكر محمد بن شاكر بن أحمد (ت٧٦٤هـ)، عيون التواريخ، تحقيق د. فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، ج٢٠ ـ بغداد، ١٩٨٠م؛ فوات الوفيات، تحقيق د. إحسان عباس، ج٢ ـ بيروت، ١٩٧٣م.

ـ ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، البداية والنهاية في التاريخ، ج١٣ ـ القاهرة، ١٣٥١ ـ ١٣٥٨هـ.

ـ كركوش، يوسف، كشف الغطاء عن كتاب فقهاء الفيحاء، مطبعة الآداب ـ النجف، (لا . ت).

ـ لسترانج، كي، بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير فرنسيس ـ بغداد، ١٣٥٥هـ.

ـ محمد بن عبدلوهاب، الشيخ، أصول الإيمان، مطابع الفلاح ـ الرياض، (لا . ت)، الكبائر مطابع الفلاح ـ الرياض، (لا . ت).

ـ محمد نجم عبد الله، الموقف العربي من التحدي المغولي، أطروحة ماجستير غير منشورة، قسم الدراسات التاريخية، معهد الدراسات

القومية والاشتراكية ـ بغداد، ١٩٨٤م.

ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر د. محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة، ١٣٥٣ ـ ١٣٥٨هـ.

ـ موسى، د. محمد يوسف، ابن تيمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة، ١٩٧٧م.

ـ نظمي زاده، نظمي زاده مرتضى أفندي، كلش خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس ـ النجف، ١٩٧١م.

ـ النقشبندي، أسامة ناصر، فنون الكتاب، منشور ضمن كتاب حضارة العراق، ج١١ ـ بغداد، ١٩٨٥م.

ـ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٢هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، المجلد ٢٦ مخطوط، صورة شمسية بدار الكتب المصرية، تحت رقم (٥٤٩)، معارف عامة.

ـ الهمذاني، رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة (ت٧١٨هـ)، جامع التواريخ تاريخ المغول، المجلد الثاني الجزء الأول نقله عن الفارسية محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي. وفؤادي عبد المعطي.

ـ هنتس، فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة د. كامل العسلي ـ عمان، ١٩٧٠م.

ـ ابن الوردي، زين الدين عمر (ت٧٥٠هـ)، تتمة المختصر في أخبار البشر ـ القاهرة، ١٢٨٥هـ.

ـ اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ)؛ مرآة الزمان، ج١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد، ١٣٧٤ ـ ١٣٧٥هـ.

* * *

فهـــرس

الموضوع	الصفحة

* * *

تُطلب جميع كتُبنا مِن :

دَار القَلم ـ دمَشق: ص ب : ٤٥٢٣ ـ ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشاميَّة ـ بَيروت ـ ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص ب : ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السّعُوديّة عَن طريق
دَار البَشير ـ جدّة : ٢١٤٦١ ـ ص ب : ٢٨٩٥
ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١